د. عصام حوراني

عطّار من نيسابور

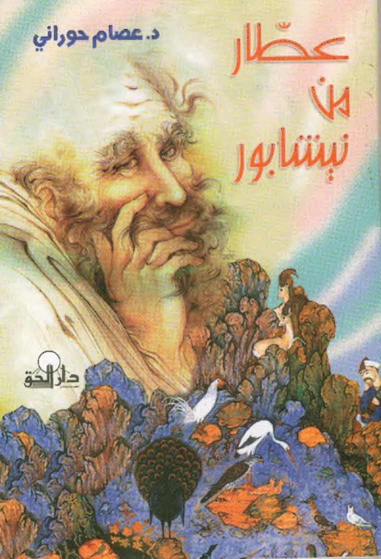

دار الحق

مقدمة

كانت إدارة المؤتمر العالمي لتكريم شاعر العرفان فريد الدين العطّار، قد أعلنت عن مبادرتها الثقافية، من خلال وسائل الإعلام، راجية من يرغب من الأدباء في العالم أن يوافوها بمقالات محدّدة تتعلّق بهذا الشاعر الكبير.

وقرأت الإعلان في إحدى المجلاّت الأدبيّة. ولما كنت شغوفاً بالتصوّف منذ زمن بعيد، تشدّني إليه نزعة حميمة، عزمت على اقتحام هذا العالم الغريب مهما كان الوقت الباقي ضيقاً، نظراً لأن المهلة المحدّدة يومذاك، كانت قد أشرفت على الإنتهاء، ذلك أني كنت قد قرأت الإعلان في مجلّة صادرة منذ أشهر معدودة.

وأسرعت إلى المكتبات الكبيرة المعروفة في بيروت،

أبحث عن العطّار. فجمعت في هذه العجالة أخباراً وآراء وأفكاراً متنوّعة. دبّجت بها مقالتي، وأرسلتها إلى إدارة المؤتمر في تهران. كان ذلك في أواسط سنة ١٩٩٤. وتسلّمت في أواخر آب من العام نفسه رسالة من إدارة المؤتمر تعلمني فيها باستلامها مقالتي بعنوان: (مع فريد الدين العطّار)، وقد أحالوها كغيرها من المقالات الواردة، إلى الهيئة العلمية للمؤتمر حيث تُدرس المقالات التي تصلها تباعاً من كلّ أنحاء العالم. على أن يُبلّغ لاحقاً أصحاب المقالات التي يتمّ إقرارها للمشاركة في أعمال المؤتمر.

مضت الأيّام والشهور، وكذلك العام، وظننتُ أنّ الأمر قد انتهى، وان مقالتي ربما أخفقت في نيل موافقة أعضاء الهيئة العلميّة وقبولهم. وأقبل أيلول من عام ١٩٩٥، عندما أُبلغت في السابع منه، من قبل المستشاريّة الثقافية بموافقة اللجنة على اشتراك مقالتي في المؤتمر في مدينة نيشابور، بناء على كتاب خاص يتضمّن دعوة رسمية من رئاسة المؤتمر.. وقد حُدّد زمانه ما بين الثالث والخامس من تشرين الأول سنة ١٩٩٥.

وتمّت الرحلة إلى تهران عبر دمشق، وقد وصلناها مساء الأول من تشرين الأول. وعشيّة اليوم الثاني وبعد زيارة لكلية الآداب في جامعة تهران، ولقاء عميدها، إنطلقنا بقطار خاص باتجاه نيشابور التي وصلناها مع صباح هذه المدينة الطيّب

المشهور، الذي فتح أمامنا الطريق نحو شاعرها الكبير فريد الدين العطّار.

بدأت الإجتماعات في قاعة (السيمُرغ) الكبيرة الفخمة، التي أُستُحدثت مع ردهاتها الرحبة، والأبنية التابعة لها من أجل هذه الأيّام العامرة التي يكرَّم فيها العطّار، بل من أجل الثقافة عامة في إيران والعالم أجمع.

إنعقدت جلسات المؤتمر الخمس على التوالي، جلسة قبل الظهر وأخرى بعده. يفصل بينهما فترات راحة وطعام، وزيارات لمقامات رجال نيشابور الكبار في الدين والأدب والفكر. وبدأت الجلسة الأولى عند الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة بالنشيد الوطني للجمهورية الإسلامية الإيرانية. ثمّ قُدّمت تلاوة آيات من القرآن الكريم. فكلمة رئيس المؤتمر، ثمّ كلمة رئيس الجمهورية التي أُلقيت بالنيابة عنه، وقد أشاد فيها بأهمية هذا المؤتمر، وتحدّث عن العرفان وطرقه ومدى ارتباطه بالإيمان، وأشار إلى مدن العشق السبع عند العطّار، ومداها الديني والخلقي والأدبي، وإلى كبار شعراء إيران ومدى ارتباط أدبهم بروح الإسلام.

ثمّ ألقى إمام نيشابور كلمته التي رحّب في مستهلّها بالوافدين لتكريم ابن مدينتهم البار شاعر العرفان الكبير. بعد ذلك ألقى السيد وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي كلمته، منوّهاً

بالمؤتمر وأهميته، وداعياً إلى السعي من أجل إنجاح جلساته، وتثمير نتائجها على الصعيد الثقافي في إيران والعالم.

وبعد كلمات في المؤتمر وأعماله وبرامجه، دُعي المشاركون إلى زيارة مرقد العطّار في إحدى ضواحي نيشابور. وقد أزاح السيد وزير الثقافة الستار عن نصب للعطّار نحته الفنان الإيراني علي قهاري خصّيصاً لهذه المناسبة وبحضوره. وقام المشاركون أيضاً بزيارة لمقام الإمام زاده محمَّد محروق، ولمرقد العالم والشاعر الكبير عمر الخيَّام.

بدأت جلسات المؤتمر الفعلية عند الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم ببحوث متنوعة ومعمَّقة قدَّمها المشاركون تباعاً خلال الأيَّام الثلاثة. وقد تناولت العطَّار من جوانب كثيرة نذكر منها: العطَّار والعرفان وابن سينا. بحث في نسخة قديمة لكتاب العطَّار (تذكرة الأولياء). وكذلك بحوث في عصر العطَّار، وفي مدن العشق السبع، وفي العرفان، وأخرى في مدى تأثير حديقة سنائي في كتاب (أسرار نامه).

وهناك بحث ومقارنة ما بين غزلي الخاقاني والعطَّار. وتحدّث أحد المشاركين في مصائب نيشابور زمن العطَّار. وتصدّى آخرون لطيور العطَّار، ولرموز أشعاره، وللفن القصصي المتمثل بمنطق الطير. وكذلك لأوزان شعره. وتناول آخرون منزلة العطَّار في الأدب العرفاني، والترجمات التي

تناولت آثار العطّار في اللغات الفنلنديّة والسويديّة، وما واجه ذلك من صعوبات. بحث آخرون في (منطق الطير)، وفي تأثير العطّار على الفكر العالمي وعلى الثقافة عامة. وتناول أحدهم كتاب (پند نامه) للعطّار. أما أنا فقد تكلمتُ في مقال تحت عنوان: (تأملات في آثار العطّار).

وفي الجلسة الأخيرة تحدَّث عدد من الأساتذة المشاركين في مثنويات العطّار، وفي عشقه، وفي قصصه، وتكلّم أحد الأساتذة الإيطاليين عن نسخة كتاب (منطق الطير) الموجودة في مكتبة مدينة تورينو.

وفي الختام أُعلنت التوصيات الخاصة بالمؤتمر ونتائجه، ودُعي الأدباء المشاركون إلى الإستفادة من أعمال المؤتمر، ومتابعة دراساتهم لما فيه خير الثقافة والإنسانية في العالم كله.

ولقد أُعقبت جلسات المؤتمر باجتماعات أدبية وثقافية مهمَّة عُقدت في تهران مع أدباء ومفكّرين إيرانيين، تناولت العطّار، والثقافة العالمية كوحدة متراصّة، تؤثر وتتأثر بعضها ببعض. وكان لنا لقاء مع رئيس التلفزيون والإذاعة في تهران الدكتور لاريجاني، وقد بحثنا في المؤتمر وأعماله ونتائجه. وغيرها من الأمور الأدبية والثقافية. وقمنا أيضاً بزيارة مؤسسة العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية التابعة لوزارة الثقافة والتعليم العالي. واجتمعنا بالدكتور مهدي‌گلشني الذي شرح لنا

دور هذه المؤسسة على الصعيدين الثقافي والأكاديمي، وكذلك اهتمامها بالنشر، والدراسات الأدبيّة والفكرية والدينية.

وكان لنا لقاءات مع أساتذة في جامعة تهران ومع عدد من الصحف، وقد تمحورت كلّها حول العطّار والثقافة في إيران، ومدى نجاح هذا المؤتمر، والمؤتمرات الأخرى المشابهة. وما يمكن أن يمثّله المشاركون من دور في عملية تفعيل الثقافة، وتبادلها بين الأقطار المختلفة في الشرق والعالم.

لقد آلينا على أنفسنا أن نتابع بحوثنا فيما بعد، ونعمل جاهدين من أجل نشر آثار هذا الشاعر العظيم في بلادنا العربية، وإبرازها في المنتديات الثقافية والأكاديمية والفكرية. والعمل على تعريب آثاره لكي تكون في متناول أيدي القرّاء العرب. وأنا بدوري قمتُ بتوسيع دراستي حول هذا الشاعر، وقد أضفت ما عدتُ وجمعته من مواد إلى بحثي الذي كنت قد تقدّمتُ به إلى المؤتمر، فأثريته بأفكار أخرى لملمتها مما تيسّر لي جمعه من الترجمات العربية لعدد من آثار العطّار. وإني إذ أتقدّم من القارىء العربي بكتابي هذا، لا كعمل أكاديمي صرف، يهمُّ المتخصصين وحدهم، بل تعمّدت إبرازه بمواد عطّارية، ليّنة، سهلة، تتخلّلها الحكايات التي يتقبّلها القارىء العادي بشغف، ويتعرّف على هذا الشاعر الكبير بيسرٍ ومتعة. وأرجو أن أكون قد حقّقت هذه الرغبة.

أذكر ههنا أن عملي هذا ما كان ليبصر النور، أو ربما تأخر زمناً طويلاً قبل أن يصل إلى المطبعة، لولا جهود المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت بشخص المستشار الدكتور محمد مهدي التسخيري، الذي تكرّم مشكوراً بالمساعدة الكريمة التي قدّمها من أجل إنجاز هذا العمل الثقافي المهم، وجعله بين أيدي القراء في لبنان والعالم العربي وأنا من جهتي أكون قد بررت بوعدي، وأسهمت بفرح وسعادة في تحقيق جزء من مقررات المؤتمر العالمي لشاعر العرفان فريد الدين العطّار النيشابوري.

عصام الحوراني

إلى فريد الدين العطار

كم حرتُ بأمرِكَ يا مولاي!، ورحتُ أبحثُ عن أخبارِكَ في كلِّ مكان، وأنا بعيد عنك مسافة ثمانية قرون من الزمان، فوجدتك مغموراً عند العربان، ولم أجد من ترجماتٍ لآثارك تروي العطشان، التائه نحو إدراك أنوارك البهيَّة، ونحو العرفان، وها أنذا العبد الظمآن، أسعى للوصول معك إلى برِّ الأمان، فأرجو المعذرة منك أيهذا الشيخ الكبير، العارف بخفايا النفس والوجدان.

نعم لقد طفتُ من مكتبة إلى أخرى أبحثُ عن الشيخ العطَّار، فلم أجد له من آثار، سوى قلّة من الكتب التي طُبعت منذ سنواتٍ بعيدة في هذه الديار، حتَّى أنَّ الذين كتبوا عن التصوفِ الإسلامي لم يعيروا هذا الشاعر العارف الكبير الأهميَّة

التي يستحقّها، بل ذُكر في معرض البحث عن شعراء التصوف في ذلك الزمان. إنّ من أهمّ أسباب إغفال نقّادنا العرب لهذا الشاعر هي عدم إتقان هؤلاء الأدباء اللغة الفارسيّة التي كتب بها العطّار مؤلفاته.

فالترحمات قليلة جداً، نستقي منها أخباره وشعره محاولين التعرّف على هذا الشاعر، فنروي حكايته، ونحاول بخفر الدخول إلى فضائه الرحب النقي الطاهر. وعلينا أن نسعى بما لدينا من معلومات إلى إخراج آثاره من أدراج الظلمات إلى النّور، وهو القائل:

بدوگفتم نشاني ده دربن رآه
جوابم داد كين ره بي نشانست
زپنهاني هويدا در هو يداست
زپيدائي نهان أندر نهانست

أي ما معناه:

قلتُ: صِفْ لي على الطريق منارا
قال: ما في طريقنا من منار
إنّه من وضوحه في ظلامٍ
ويُرى من خفائه كالنّهار

التصوف

التصوُّف أو الصوفيّة إسمٌ مشتق من الصوف كما يُروى، ويذكرُ أبو نصر السرّاج صاحب كتاب (اللُّمع)، أنّهم يُسمُّون بهذا الإسم نسبة إلى «ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء والأصفياء». يرقى هذا الإسم إلى عهد ما قبل الإسلام. وهناك آراء أخرى بخصوص أصل إسم التصوُّف، فمنهم من نسب هؤلاء إلى أهل الصُّفّة، أو ردُّوا الإسم إلى (الصفاء)، أو إلى (الصفّ الأول) من بين المؤمنين. وعلّل آخرون بأن أصل الإسم يرقى إلى قبيلة بني صوفة البدويّة، أو إلى (الصفوانة) وهي نوع من البقل قيل أنّها كانت مأكول هؤلاء الزهّاد. وغيرها من البحوث المتنوعة التي تناولت أصل جذر (تصوُّف). ونذكر أن أبا منصور البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩هـ، جمع في معجمه المعروف ألف تعريف

للتصوّف، وقد حاول عدد من المتصوفين استبدال هذه اللفظة بـ(التقرّي) نسبة إلى القرآن الكريم.

يقوم التصوُّف على أساس الإتصال بين العبد والله سبحانه وتعالى، وإمكانيَّة الإتحاد به، وقد أجاب الجنيد عندما سُئل عن التصوُّف قائلاً: «هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة». وقال الشبلي: «التصوُّف هُو الجلوسُ مع الله بلا همّ». وقال أيضاً: «الصوفي منقطع عن الخلق، متصل بالحق، لقوله تعالى: ﴿واصطنعْتُك لنفسي﴾ طه/ ٤١. أي قطعه عن كل غير. وقد لخَّص السرَّاج معاني الصوفيَّة، فقال: «هم العلماء بالله، وبأحكام الله، العاملون بما علَّمهم الله تعالى، المتحقِّقون بما استعملهم الله عزَّ وجلّ، الواجدون بما تحقَّقوا، الفانون بما وجدوا، لأنَّ كلَّ واحد قد فَنِيَ بما وجد»[1].

وكما قال ابن الفارض:

وما زِلْتُ إيّاها وإيّايَ لم تزل
ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبَّتِ

وهو الذي لم يستطع وصفها، لأن التجربة التي مرّ بها هي فوق الحسّ والكلام على الرغم من يقينه بحقيقتها، فيقول:

(١) السرّاج، اللّمع، ص٢٦/ ٢٧.

يقولون لي صِفها، فأنت بوصفها
عليمٌ، أجل عندي بأوصافها علمُ
صفـاء ولا مـاء، ولُطـفٌ ولا هـواً
ونـورٌ ولا نـارٌ، وروحٌ ولا جسـمُ

التصوّف بحدّ ذاته، هو الإختبار الباطني، بوساطة طرائق معيَّنة، وترويض عميق للقوى الحسيَّة والباطنيَّة، بحيث يتمكنون من بلوغ الحقائق السامية (Transcendante) التي تعلو على الحسّ والوصف والتعبير، وكما قال الغزالي: «الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكـان مـا كـان ممـا لسـتُ أذكـرهُ
فظـنَّ خيـراً ولا تسـألْ عـنِ الخبـرِ

وقال جلال الدين الروميّ، كما جاء في كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) لغولدزيهر: «لم تكن روحانا في الأصلِ سوى روحٍ واحدةٍ، كذا كان ظهوري وظهورك، فمن الخطل الكلام عنِّي وعنْكَ، فقد بطل فيما بيننا كلمة أنا وأنت... وقال: لستُ أنا ولستَ أنتَ، كما أنَّكَ لست أنا، فإنني أنت وأنا في وقتٍ واحد، كما أنكَ أنتَ وأنا في وقتٍ معاً. وبسببك يا جلال (خوتن) أشعربضيقٍ وحيرة، ولا أدري إذا كنتُ أنا أو إذا كنت أنتَ..»[1].

(١) يراجع حنا الفاخوري/ خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية ص٢٤١.

مثّل المتصوّفون دوراً إجتماعياً مهماً، فالتصوّف بحدِّ ذاته أخلاق، وقاعدة للحياة، وهو شوق للتضحية في سبيل الإخوان حتى الإستشهاد. وكان لهم الدور المهم في نشر الدعوة الإسلاميَّة، كما أنهم يمتازون بنزعة إنسانية عالميَّة منفتحة على سائر الأديان والمذاهب والأجناس البشريّة، على حدِّ قوله محيي الدينِ ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ:
فمرعىً لِغزّلانٍ، وديرٌ لرهبانٍ
وبيتٌ لأوثانٍ، وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ، ومصحفُ قرآنٍ
أدينُ بدِينِ الحبِّ، أنّى توجَّهتْ
ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني[1]

ونسمع جلال الدين الرومي يقول في هذا المعنى:

چه تدبيرى مسلمانان كه مَنْ خودرا نميدانَمْ
نه تَرْسانه يهوديم من نه كَبْرم نه مسلمانم
نه شرقيّم نه غربيّم، نه علويم نه سُفليم
نه از أركان طبيعيّم نه از أفلاك گردانَمْ

(١) ابن عربي، ترجمان الأشواق، بيروت ١٣١٢هـ، ص٣٩/ ٤٠.

نه از هندم نه از چينم نه از بلغار وسقسينم

نه از ملك عراقينم نه از خاكِ خُراسانَمْ

نشانَمْ بي نشان باشد مكانَمْ لا سكان باشد

نه مَن باشد، نه جان باشد، كه من خودجان جانانم

دوئي را چون برون كردَم، دو عالم رايكي ديدَمْ

يكي بينم، يكي جويم، يكي دانم، يكي خوانَمْ

أي ما معناه:

أيُها المسلمون! ليت شعري ما التدبير؟ أنا لا أدري من أنا:

فلا أنا مسيحيّ ولا يهوديّ ولا زرادشتي ولا مسلم

ولا شرقي ولا غربي، ولا عُلويٌّ ولا سُفليٌّ

ولا أنا من عناصر الطبيعة، ولا أنا من الفلك الدوّار

ولا أنا هنديّ ولا صيني ولا بلغاريّ ولا من سقسين

ولا عراقي ولا من أرض خُراسان

علامتي بلا علامة، مكاني بلا مكانٌ

ولا أنا جسم ولا روح، فنفسي روح الأرواح

لمّا لفظت الإثنينية رأيتُ العالم واحداً

إني أرى واحداً، وأنشدُ واحداً وأعلم واحداً وأقرأ واحداً[١]

---

(١) نيكلسون، في التصوّف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبي العلاء عفيفي.

أمّا المؤثرات الأجنبية في نشأة التصوف الإسلامي فيردُّه الباحثون إلى عوامل خارجية كثيرة، ويأكدون بأنَّ هناك تأثيرات إيرانية ومسيحية، وعبرانية، وهنديّة ويونانية، وأفلاطونية حديثة، ويعلّلون ذلك مقدّمين البراهين والأدلّة لإثبات آرائهم ومزاعمهم. وقد ردَّ عدد منهم التأثير الإيراني إلى كون العقلية العربية بخاصة والسامية بشكل عام، كانت غير مؤهَّلة للإهتمام بالفنون والعلوم والآداب، والروحانيات، نظراً لافتقارها إلى الخيال، وما يتصل به من نزعات روحيَّة، ومرونة عقليَّة ولغويّة، فكانت الشّعوب الآريّة ذات الإرث الفكري والأدبي القديم، مهيأة لمثل هذه الأمور الفكرية والروحيّة، فأسهمت إلى حدٍ بعيد في عملية نمو هذه البذور الصوفيّة في العالم الإسلامي.

مهما يكن من أمر تعدّد هذه الآراء، فإننا نرى أهميّة هذا الإرث الروحي الآري الكبير، الذي لم يؤثر فقط على الحياة الروحية في العالم العربي والإسلامي، بل أيضاً على اللغة العربيةِ والآداب والعلوم، وهو واضح المعالم وثابت في كل هذه الآثار الفكرية والإبداعيّة والروحيّة، ومنها الفكر الصوفي الذي انتشر في إيران والعالم العربي، إبتداء من النبي ﷺ وما نسب إليه من حديث عن الرهبان والرهبانية، ثمَّ زهده في الحياة وإكثاره من الصوم والتهجُّد والصلاة. ويُذكر أنه كانت

هناك نزعات صوفيّة عند عدد من الصحابة، نذكر منهم (أبو الدرداء) المتوفي سنة ٣٢هـ، و(أبو ذر الغفاري) المتوفي سنة ٣١هـ، و(عمران بن الحصين الخزاعي) المتوفي سنة ٥٢ هـ، و(أويس القرنيّ) المتوفي سنة ٣٧هـ، والذي تكلّم عليه شاعرنا فريد الدين العطّار في كتابه (تذكرة الأولياء)، الذي استمدَّ مادته الرئيسيَّة من كتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصفهاني المتوفي سنة ٤٢٩ هـ.

غير أنَّ الإسلام، وهو دين عمل وجدّ، وإيمان، فقد نهى عن الرهبانيّة، وحذّر من الغلو في الدين، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿يا بني آدم خُذوا زِينتَكُم عندَ كلِّ مسجدٍ وكُلُوا واشربوا ولا تُسرفوا إنهُ لا يحبُّ المسرفين * قُلْ من حرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لعبادهِ والطيِّباتِ من الرزقِ قل هي للَّذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون﴾ الأعراف/ ٣١ ـ ٣٢. وقال أيضاً: ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّار الآخرة ولا تنسَ نصيبكَ من الدُّنيا. . .﴾ القصص/ ٧٧.

بيد أنّ الإسلام يرى أن كلّ هذه الأمور من لذائذٍ ولهو، وتفاخر، ليست بباقية أو خالدة، فالكُلُّ في النهاية زائل، إلاّ الأعمال التي يحاسب عليها المرءُ في النهاية، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿إعلموا إنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد، كمثل غيثٍ أعجبَ الكفَّارَ

نباتُه ثمَّ يَهيجُ فتراه مصفراً ثمَّ يكونُ حطاماً. وفي الآخرة عذابٌ شـديـدٌ ومغفـرةٌ مـن اللهِ ورضـوانٌ ومـا الحيـاةُ الـدُّنْيَـا إلاَّ مَتَـاعُ الغُرور﴾. الحديد/ ٢٠.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿فاصبِرْ على ما يقولونَ وسَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غُروبها ومن آناء الليل فسبِّح وأطراف النَّهار لعلَّك ترضى. ولا تمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فيه ورزقُ ربك خيرٌ وأبقى. وأْمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِر عليها لا نسألُك رِزقاً نَحن نَرزُقُكَ والعاقبةُ للتَّقوى﴾ طه/ ١٣٠ ـ ١٣١.

ومن الآيات الكريمة التي تحذِّر من الغفلة والهوى، والتي جعلها المتصوفون من بعد، مذاهب وطرائق، ساروا على هديها، نذكر الآية الكريمة: ﴿الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنُوبِهـم ويتفكّرون في خلـق السـموات والأرض﴾ آل عمـران/ ١٩١، وغيرهـا من الآيـات الكـريمـة التـي ستـرد في معرض بحثنا عن التصوُّف عند العطّار.

هكذا كان للإسلام الدور الإساسي والرئيسي في عملية تطوّر التصـوف وتكـامله. فـاستقـى المتصـوفـون من القـرآن الكريم، ومن السيرة النبويّة، ومن حياة أهل البيت والصحابة قواعد وأفكار، ساروا على هديها في مسيرتهم الصوفية النقية. بيد أن هناك عوامل أخرى، كما ذكرنا، وعناصر مختلفة أثّرت

في الفكر الصوفي، وكانت له روافد خيِّرة، أمدَّته بطاقات معينة من المعرفة، والذوق، والسلوك وما إلى ذلك. ونذكر منها: العامل المسيحي، وهو أقدم العناصر في التصوف الإسلامي، وأبعدها أثراً. ويمكننا التأكد من هذا الأمر، لو طالعنا الرسالة القشيرية نرى فيها الكثير من تعاليم السيد المسيح وأقواله. فالزهد المسيحي كان منتشراً في البلاد العربية والمحيط منذ زمن بعيد، وقد أشار القرآن الكريم إلى الرهبان التائهين بقوله تعالى: ﴿التَّائبون العابدون الحامدونَ السائحونَ الراكعون السَّاجدونَ الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر﴾ التوبة/ ١١٢.

وامتاز هؤلاء الرهبان بالتوكل المطلق على الله، وأصبح ذاك أحد مقامات الصوفيَّة المهمة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحبِّ الإلّهي، والسلوك المسيحي، من فقر، وتعفّف. ومحبَّة، فجاء التصوف تحت تأثير المسيحية «بحدث جديد في الشريعة، فإذا به يكاد يقضي على تلك الرهبة وإذا بالعابد يقف أمام معبوده، يخاطبه مخاطبة العاشق معشوقه، والحبيب حبيبه، وإذا هناك ناحية جديدة من الشاعريَّة تنمو وتزدهر وتتشعب وتصبح من أوتارها الحسَّاسة»[1].

(١) د. جبور عبد النور، التصوّف عند العرب، المطبوعات الأهلية بيروت ١٩٣٨، ص٥٤

وهناك العامل الهندي البوذي، وقد اتَّصل المسلمون بالرهبان البوذيين منذ أمدٍ بعيد، ولا سيما بعد أن توسعت أرجاء الدولة الإسلامية الكبيرة. وهكذا تسرَّبت إلى هذه المناطق عناصر بوذيّة هنديّة، وصار هناك أصول منها في التصوف الإسلامي، فنرى ذلك الشبه بين البوذية والصوفية في أمور متنوّعة، أهمها: الإبتعاد عن العالم والزهد والتقشف، والفناء في الوجود الكلي، وفكرة المراحل أو المقامات الروحية التي يسلكها الراهب البوذي من أجل بلوغ درجات الفناء أو (النرڤانا). أما فناء المتصوف المسلم فيكون إمّا كما قال القشيري: «سقوط الأوصاف المذمومة»، أو «رجوع الروح إلى منبعها الأول»، كما يقول جماعة الأفلاطونية الحديثة وغيرهم.

ونذكر أيضاً من هذه العناصر المشتركة بين التصوف والبوذية: فكرة الخرقة، والسُّبحة، ورياضات الذكر، ونظام التنفّس الروحي والنشوة. ونسمع بوذا يعلم تلاميذه قائلاً: «إسمعوا أيّها البيخوسيُّون الحقيقة السامية في ملاشاة الألم. إنّها في القضاء على كلّ عاطفة، والخلاص من كلّ طموح بالقضاء على الرغبة. أمّا الطريق التي توصلنا إلى ملاشاته فهي الإرادة الثابتة والكلام الصادق والأخلاق الصالحة والتأمُّل الحقيقي. هذه هي الطريقة التي تفتح العيون وتقوّي الروح،

وتقود إلى الراحة والإشراق والنيرفانا. إن الرغبة هي سبب التناسخ، والتناسخ سبب الألم، فإذا نزعنا الرغبة من صدورنا تخلّصنا من الألم..»[1].

والعامل الآخر، هو الأفلاطونية الحديثة، وما دعت إليه من معرفة الله بوساطة تطهير القلب، والتحرّر من عبودية الجسد، ونبذ الدنيا، والتأمّل، لكي يصل المريد إلى الاتصال بالله ومشاهدته. هي مجموعة أفكار وآراء دعا إليها أصحاب مذاهب الغنوصيّة والثانويّة، والمانوية والأفلاطونية الحديثة. ويقودنا ذلك إلى مدرسة الإسكندريّة المتمثلة بالفيلسوف فيلون (٢٠ ق.م) وأفلوطين (٢٠٤م ـ ٢٧٠م) الذي قال: «إن الإنجذاب الروحاني هو الطريقة الوحيدة التي توصلنا إلى المعرفة. هذا الإنجذاب لا يتمّ إلاّ عندما نكون في حالة سكر روحاني، فتمتزج الروح الفرديّة بالخير المطلق، وتدرك أسرار جميع الكائنات. وهذه مرحلة لا تصل إليها إلاّ الأرواح الموهوبة كالأنبياء والحكماء بعد محاولات عديدة..».

«وقد أخذ المتصوّفون عن المذهب الإسكندري نظرية الصدور، ونظرية الرجوع والإنجذاب، ونظرية الروح والنفس، وكره العالم، وحياة الزهد وانتظار الحياة الثانية»[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٧.

ولا بدّ أن نمرّ بالعامل الإشراقي الذي ينسبه كثيرون من الباحثين إلى المدرسة الإسكندرية، بينما هو في الواقع فارسي زرادشتي، تناوله العرب ومزجوه بالمذهب الأفلاطوني. ولكي نتعرّف على الإشراق علينا الإنتقال إلى بلاد فارس.

إيران والتصوف

إيران بأرضها الشاسعة، وجبالها الشاهقة، وصحاريها المترامية الأطراف، ومناخاتها المتنوعة، كانت ملتقى ثقافات مختلفة، وكانت الجسر الحضاري القديم الذي يصل الشرق بالغرب. فإذا بها تطلُّ غرباً على بلاد ما بين النهرين واليونان وروما، وشرقاً على الهند والصين، وهذا ما نلاحظه في التقارب بين الديانات الإيرانية القديمة والهندية، ولاسيما بالنسبة إلى نظرتهما نحو الإله والكون، وكذلك ممارسة الطقوس الدينية.

إنَّ المعتقدات الدينية لدى الشعوب الآريّة، والتي سيطرت آثارها الفكريّة في الشرق لقرونٍ طويلة، هي قديمة جداً، وترقى إلى العهود الهنديّة القديمة، إلى زمن كتاب (ريگ

فدا) Rigveda وهو يحوي مجموعة من الأناشيد تمثّل عهداً بدأت معه الشعوب الآريّة بالتحوُّل من الحياة الصحراويّة القبليّة المغرقة في البداوة، إلى عصر العمران والزراعة. ففي تلك الأعصر القديمة، وما جاء بعدها «كانت المعتقدات الآريّة قائمة على تقديس العناصر الطبيعيّة المفيدة للحياة، والنظر إليها نظرة إلّهية عليا، فالسماء الصافية، والنور المشع، والنار ذات البهاء والحرارة، والشمس المنيرة، والأرض التي نظرت تلك الشعوب إليها كأم حنون، والماء الذي منه كلّ شيء حيّ، والرياح والرعود التي كانت تحيي الأرض بأمطار السحاب، كانت كلّها من العناصر المقدَّسة. ومقابل تلك العناصر، عناصر أخرى أو ظواهر طبيعية ضارّة وهدّامة، كالظلمة والجفاف والبرد والمرض، وأشباه ذلك كانوا يعدّونها عناصر أو ظواهر شيطانية ملعونة، فالقوى الفعّالة في الكون عندهم هي آلهة للخير وآلهة للشر»[1].

تلك النزعات الفكريّة، قادت العقل نحو بلوغ مرحلة أكثر تطوُّراً، وذلك مع ظهور دين (مِهر) أو (الميترائيسم)، الذي عُرف في بلاد إيران القديمة. وسارت الشعوب الآريّة منذ ذلك الزمان في طريقها نحو مرحلة شبه التوحيد، مع سيطرة

---

(١) محمّد محمّدي، الأدب الفارسي، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧، ص٧٨

الإلّه (مِهر) أو (ميترا)، وتبوُّئهِ مكانة مهمَّة يومذاك، واستمرت هده الأفكار تسيطر على عقول الناس حتى مجيء زرادشت حوالي القرن السابع ق.م. من شمال غربي إيران، من بلدةٍ تدعى أرميَّة في منطقة أذربيجان. وقد رافقت الزرادشتية أعصر التطوُّر المختلفة، فمن دور الإعتقاد بتعدد الآلهة (Polytheism) إلى دور التوحيد (Mono theism)، مع ظهور (أهورا مزدا) الإلّه القادر، والكامل، والوحيد، الذي يقف دائماً في وجه (أهريمن) إلّه الشر. ونجد في كتاب (أفستا) الذي يتناول تعاليم زرادشت، أناشيد جذَّابة، نستنشق منها إثبات وحدة الخالق، على الرغم من اعتقاد زرادشت بازدواجيَّة القوى التي وجدت منذ بدء الخليقة. وعُرف هؤلاء بالمجوس. لم يُعدّوا في الإسلام من المشركين كما جاء في الآية الكريمة: ﴿إنَّ الذينَ آمنُوا والذينَ هادُوا والصَّابئينَ والنَّصارى والمَجُوسَ والذينَ أشركوا إنَّ اللهَ يَفْصِلُ بينهُمْ يومَ القِيامَةِ، إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيد﴾ الحج/١٧. وجاء في حديث شريف، نقله البلاذري في فتوح البلدان ان الرسول صلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّم قال عن المجوس: «سُنُّوا بهم سنَّة أهلِ الكتاب». وذكر الكتاب المقدَّس المسيحي، أن المجوس أقبلوا من المشرق وبشروا بمولد السيد المسيح، وقالوا بأنهم رأوا نجمه في المشرق وأتوا ليسجدوا له، وقدّموا للطفل المولود هدايا من ذهب ولبان ومُرّ». متّى/٢.

هذه البذور الروحيّة التي واكبت الأعصر القديمة، إستمرت تعمل على تطعيم الفكر الإيراني مع تعاقب العهود والأزمنة، وذلك بروحانيّة خالصة شفّافة، تسمو على النزعة المادّيّة، ويمكننا القول أنَّ هذه الجذور النقيّة تداخلت في كل الديانات التي جاءت فيما بعد، وأعطتها نكهة خاصة، وطعماً حلواً، وشذىً عِطراً. وكذلك فإن تأثيرها على الأدب والفن والفكر بقي فاعلاً على مرِّ الأجيال. وسارت هذه البذور الروحيّة تعتمل في الأعماق وفي الوجدان، فتفاعلت مع هذه الأرواح الهائمة في عالم العرفان، ولاسيما بعد مجيء الإسلام، فكان من ثمارها التصوّف الذي نحن بصدد البحث عن أبرز أركانه في إيران، وهو الشيخ العارف فريد الدين العطّار.

ويجدر بنا أن نذكر حقائق مهمّة، تتعلق بمدى ريادة الفكر الصوفي الإيراني في أنحاء الأمّة الاسلامية. فالعنصر الإشراقي الذي يرقى إلى المشارقة، يتمثل بحكماء الفرس، الذين اعتمدوا في حكمتهم على الكشف والمشاهدة والتجربة الشخصيّة الذوقيّة. وهذه تعود إلى عهدي زرادشت وكيخسرَو، وما أحاطهما من تلاميذ واتباع خلال الأعوام المتعاقبة. وقد نستطيع الولوج إلى عالم الإشراق هذا من خلال نص ورد في تعليق لقطب الدين الشيرازي على كتاب (حكمة الإشراق)

لشهاب الدين السُّهرَوَردي، جاء فيه: «حكمة الإشراق أي الحكمة المؤسسة على الإشراق الذي هو الكشف، أو حكمة المشارقة الذين هم أهل فارس، وهو أيضاً يرجع إلى الأول لأنّ حكمتهم كشفيّة ذوقيّة، فنُسبت إلى الإشراق: الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالإشراقات على الأنفس عند تجرّدها، وكان اعتماد الفارسيين في الحكمة على الذوق والكشف، وكذا قدماء اليونان خلا أرسطو وشيعته، فإن اعتمادهم كان على البحث والبرهان لا غير». تلك هي المعرفة الصوفيّة التي سمُّوها ذوقاً عند العرب، وسمّاها متصوفو الغرب (GusTus) وهي تعني أيضاً الذوق. هذا الإرتباط الكوني الإنساني ببدايات التصوّف، بل بالإشراق، يقودنا إلى علم خاص معيَّن، يناله أربابه من أهل الحدس الصوفي والكشف، ونسب السّهروردي في كتاب (التلويحات) إلى أفلاطون قوله: «اني ربما خلوت بنفسي، وخلعتُ بدني جانباً، وصرتُ كأني مجرّد بلا بدن، عريٌّ عن الملابس الطبيعية، بريٌّ عن الهيولى، فأكون داخلاً في ذاتي خارجاً عن سائر الأشياء فأرى في نفسي من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن العجيبة الأنيقة ما أبقى متعجباً فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف...»[1].

(١) تاريخ الفلسفة العربية، ص٢٥٦.

هكذا نرى بأن الإشراق الذي يمتد بجذوره إلى بلاد فارس، هو الخميرة والأساس الذي ارتكز عليه التصوف الإسلامي ونسمع قولاً في هذا المقام، للدكتور جبّور عبد النور في كتابه (التصوّف عند العرب). يقول فيه في معرض كلامه على العنصر الإسلامي في التصوف ما يأتي: «ولكننا نقف أمام ظاهرة غريبة قد لا نجد لها تأويلاً، وقد تساعد بعض المؤرخين في زعمهم أن أصل التصوف أجنبي. فنقف أمامهم وليس لدينا برهان حِسّي نجادلهم به وهي أن المتصوفين الأوّلين الذين ظهروا في الممالك العربية لم يكونوا عرباً، وإنَّما هم أفراد يتسبون في الأصل إلى مللٍ غريبة، وفي المولد إلى بلاد أجنبية، وإنَّ كثيرين من الذين برزوا في عهد النضج كانوا فرساً. . .» ويعدّد الباحث أسماء لكبار رجال التصوّف ينتسبون إلى بلاد فارس، وقد استقاهم من (الرسالة القشيرية)، مذكر منهم: أبو علي الفضيل بن عياض الخراساني الذي عاش في مكة سنة ١٨٧هـ. وأبو نصر بشر بن الحرث الحافي من مرو، المتوفي سنة ٢٢٧هـ وأبو يزيد طيفور البسطامي المجوسي الأصل والمتوفي سنة ٢٦١هـ، وأبو القاسم الجنيد من نهاوند، المتوفي سنة ٢٩٧هـ. وكذلك ممشاد الدينوري الذي مات سنة ٢٩٦هـ وخير النسّاج، وأبو يعقوب إسحق بن محمد النهرجوري الذي مات بمكة سنة ٣٣٠هـ، وهو القائل: «الدنيا

بحر، والآخرة ساحل، والمركب التقوى، والناس سَفَر» ويذكر أيضاً أبا بكر الحسين بن علي بن يزدانيار، وأبا القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي المتوفي بمكة سنة ٣٦٩هـ. . . ويردف غبد النور في النص عينه :

«. . . ولا سبيل إلى إنكار فضل الأعاجم في الحضارة العربية. . فكما كان أثرهم سيئاً في النواحي الإجتماعية والسياسية كان أثرهم حسناً في النواحي العلمية والفلسفية، فقد كانوا أقرب من العرب الأقحاح، إلى فهم الدقائق الروحيّة في الشريعة الإسلامية، لأنهم ألفوا الحوار في مثل هذه المواضيع. . . فليس بالغريب إذاً أن يكونوا أول من فكّر باستقلال العنصر الروحي الإسلامي، وأوّل من أنشأ الفرق، وساعد على انتشارها لأجل إشباع نهمهم الفلسفي اللاهوتي، ولأحل أسباب أخرى ظهرت عند الشعوبية بأجلى وضوح. . .»[١].

(١) التصوّف عند العرب، ص٤٠.

فجر نيشابور

عندما كانت شمس الكسائي في سماء مدينة مرو تؤذن بالمغيب، كان يلوح في أفق هذه المدينة نجم شاعر عظيم هو ناصر خسرو القبادياني (٣٩٤هـ/ ٤٨١هـ)، الذي اعتنق المذهب الباطني الإسماعيلي، فازداد اهتمامه بأدب الحكمة والمواعظ الذي يتَّصل بالأفكار الدينية. وقد سار في هذا البحر العظيم إلى أن أخرج للأدبي الفارسي والعالمي مثنويات نذكر منها مطومتي (روشنايي نامه) و(سعادت نامه). في أواخر عهد هذا الشاعر الكبير الذي كان ينظم أشعاره الدينية في وادي يمگان، ظهر الفيلسوف والرياضي وعالم الفلك المشهور عمر الخيَّام النيشابوري المتوفي سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م. تطوَّر الشعر الحكمي على يد فتح أبو المجد مجدود بن آدم السنائي (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، فأخذ هذا الشعر ينحو نحو التصُّوف

والعرفان. ونذكر في هذه الأيّام شاعر القصيد المعروف أوحد الدين الأنوري (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، الذي عُرف بمهارته وبراعته في فنّ-نظم المقطوعات والمثنويات المتنوّعة، التي تدور في فلك الحكمة والإجتماع والدين. نذكر أيضاً في هذا المقام رباعيات أبي سعيد بن أبي الخير (٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، وخواجه عبد الله الأنصاري (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م). وفي رمس السنائي ظهر شاعر آخر سار على منواله، هو أحمد الجامي المعروف بزنده پيل (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، وقد نظم مثنويات متنوعة، ورباعيات عرفانية جميلة. ويقودنا الكلام إلى النظامي الكنجوي صاحب منظومة (مخزن الأسرار) في الشعر العرفاني الحكمي الإجتماعي.

في هذا الجو بالذات، ومن هذه المناهل والمشارب النقيّة الطاهرة، نهل شاعرنا المبدع الكبير فريد الدين العطّار، شاعر العرفان المشهور، الذي نحن بصدد التعرّف إلى حياته، وأدبه وفكره الصوفي.

درّهٔ بوژان

لاله، رُخی چو ماه می‌بینم من — سبزه، زخطی سیاه می‌بینم من
وان کاسهٔ سر که بود پر باد غرور — پیمانهٔ خاک راه می‌بینم من

عطار نیشابوری

عطار من نيشابور

هو أبو حامد محمّد بن أبي بكر إبراهيم بن أبي يعقوب إسحق، وقيل بأنه أبو طالب، وقد عُرف باسم فريد الدّين العطّار. يُروى بأنه ولد في قرية (كَد كَن) المجاورة لنيشابور، ثمّ انتقل به والديه إلى ضاحية (شادياخ) في نيشابور، والتي تمثّل نيشابور الجديدة، بعد أن خرّب الغز[1] هذه المدينة سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان في معرض كلامه على هذه المدينة: «وأصابها الغزّ في سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيثُ أسروا الملك سَنْجَر وملكوا أكثر خراسان وقدموا نيسابور وقتلوا كلَّ من وجدوا. . . وخربوها

(١) الغز سلالة من الأتراك المماليك، حكموا شرقي إيران وأفغانستان وبنجاب (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٨٧م، أسس هذه السلالة ألب تكين أحد ولاة السامانيين، ورشّحها صهره سبكتكين. كانت عاصمتهم غزنة في أفغانستان.

وأحرقوها . . . فنُقل الناس إلى محلة منها يُقال لها شاذياخ . . . وتقلّبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً وأموالاً لأنها دهليز المشرق . . . ويصفها قائلاً: «وأكثر شرب أهل نيسابور من قني تجري تحت الأرض، يُنزل إليها في سراديب مهيّأة لذلك، فيوجد الماء تحت الأرض وليس بصادق الحلاوة، وعهدي بها كثيرة الفواكه والخيرات، وبها ريباس ليس في الدنيا مثله تكون الواحدة منه منّاً وأكثر . . .»[1]. نعم ولقد زرت هذه المدينة منذ حوالي ثلاث سنوات، وهي بالتمام كما وصفها الحموي، ولا تزال مشهورة بشراب الريباس، وبهوائها العليل، وعندهم مثل يقول: ما أطيب صبح نيشابور، وما ألذّ عشايا بغداد. وكانت تسمّى الشام الثانية لكثرة ما فيها من قبور الأولياء. وأُطلق عليها أيضاً أسماء: إيرانشهر، وأُمّ البلاد، ودار الملك، ودار العلم، وأرفع مكان مسكون يُروى بأن أول مدرسة بُنيت في الإسلام كانت بنيشابور للإمام أبي إسحق الأسفرايني، وكذلك مدرسة ابن فورك. وتقع هذه المدينة في منطقة خراسان في شرقي إيران.
ويقع هذا الإقليم عند ملتقى إيران بآسيّا الغربية والشرقية الشمالية، وأوروبّا وإفريقية. واللفظة مركبّة من (خُز) أي الشمس (حورشيد) وأسان وتعني السهل، وقالوا من حديث في

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان.

خراسان: ما خرجت من خراسان راية في جاهلية وإسلام فرُدّت حتى تبلغ منتهاها. وقيل أيضاً.

الـدّار داران: إيـوان وغُمـدانُ،

والمُلك مُلكان: ساسان وقحطان

والنـاس فـارس والإقليـم بـابـل والـ

إسـلام مكّـة والـدنيـا خُـراسـانُ[1]

ويورد الحموي قولاً لابن قتيبة في خراسان، قال: أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لِقاحاً، لا يؤدّون إلى أحدٍ إتاوة ولا خراجاً، وكانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ حتى نزلوا بابل، ثمّ نزل أردشير بن بابك فارس فصارت دار ملكهم وصار بخراسان ملوك الهياطلة..»[2] وكانت نيشابور عاصمة خراسان، وفيها قال أبو العباس الزّوزني المعروف بالمأموني:

ليس في الأرض مثل نيسابورُ بلـدٌ طيّـبٌ وربٌّ غفـورُ

وشاعرنا من مدينة العلماء التي قال أيضاً عنها ياقوت الحموي:

«معدن الفضلاء، ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من

(١) المصدر نفسه.

(٢) معجم البلدان.

البلاد مدينة كانت مثلها . . . وقد خرج منها من أئمة العلم ما لا يحصى»[1]. فيها ولد في عهد السلطان سنجر السلجوقي، الذي أسرته جيوش الغُز سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، يوم دخلوا إلى هذه المدينة وأعملوا فيها القتل والتدمير. تباينت الآراء حول سنة مولد العطّار وسنة وفاته. بالنسبة إلى ولادته فقد أجمع أكثر المؤرخين على حدود عامي ٥١٢ هـ و٥١٣ هـ، بينما أشار سيد أمير علي في كتابه (روح الإسلام) إلى أنه ولد عام ٥٤٥ هـ. غير أنّ الواقع والدلائل تشير إلى عكس ذلك، بدليل أننا نسمعه يتكلّم على السلطان سنجر المتوفى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م كلامه على إنسانٍ حيّ معاصر له. ولا يمكن أن يصحّ ذلك مع زعم سيد أمير علي، والعطّار ابن سبع سنوات[2]. وجاء في كتاب (نفحات الانس) لنور الدين جامي في معرض كلامه على العطّار: «وحصرة الشيخ استشهد في ٦٢٧ هـ على يد الكفّار وسنه المبارك في ذلك الوقت كما يقولون ١١٤ سنة»[3]. وذكر دولتشاه في كتابه (تذكرة الشعراء) مولد العطّار قائلاً: «ويمتاز العطّار بأنه كان معمراً، فقيل انه بلغ

(١) المصدر عينه.
(٢) عبد الوهاب عزّام، التصوف وفريد الدين العطّار، دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٥، ص٤٩.
(٣) يراجع كتاب جامي (نفحات الأنس)، تعريب تاج الدين بن زكريا النقشبدي/ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٧٩٥ ـ عن د. بديع محمد جمعه ـ منطق الطير، دار الاندلس ط٢، ١٩٧٩

المائة والأربع عشرة سنة، وقد ولد في عصر السلطان سنجر في السادس من شعبان عام ٥١٣ هـ[1].

أمّا بالنسبة إلى سنة وفاته، يُرجِّح عدد من الباحثين إلى أنها كانت في حدود عام ٦٢٧ هـ، زمن غزو المغول لمدينة نيشابور، وتخريبهم لها، وقتل أهلها. ويعتمد عدد من المؤرخين على أبياتٍ من الشعر قيلت فيه، نقلها صاحب (حزينة الأصفياء) عن صاحب (مخبر الواصلين) وهي:

شيخ الدنيا والدين فريد الدين   شمس فلك الصدق واليقين
عمره مائة وأربع عشرة سنة   وذلك من لطف الله المتعال

واعتبر العقل تاريخ وفاة ذلك المسعود، موافقاً لجملة (بلبل الجنَّة والجنانِ). و(بلبل الجنَّة والجنان) تعني بحسب الترتيب الأبجدي سنة ٦٢٧ هـ[2].

أمّا أحمد أمين الرازي فيذكر في (هفت إقليم) هذين البيتين:

شيخ عطار آن فريد روزگار
مرشد شاهان وشاهنشاه فقر

(١) دولتشاه، تذكرة الشعراء، ليدن ١٩٠٠، ص١٨٧.
(٢) بديع محمّد جمعة، فريد الدين العطّار النيسابوري، منطق الطير، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٩، ط٢.

شــد شهيـــد راه فقـــر آن رهـمـــا
ســال تـاريخـش أز آن شـد راه فقر

أي ما معناه بالعربية: «الشيخ العطّار فريد الزمان مرشد الملوك وملك الفقر. أُستشهد في طريق الفقر، هذا المرشد ـ فصار تاريخ وفاته طريق الفقر(راه فقر) وهذا بحسب الحمل يساوي لسنة ٥٨٦هـ»[(١)].

هكذا نرى أن المؤرخين لم يُجمعوا على تاريخ محدَّد لسنتي ولادته ووفاته، ولاسيما في المراجع التي ذكرته أو أرّخت له، وأوّلها كتاب (لباب الألباب) المؤلف عام ٦١٧هـ، وكتاب (تاريخ كَزيده) المؤلف عام ٧٣٠ هـ.

أما بالنسبة إلى أسرة العطّار فلم يذكر المؤرخون حقائق ثابتة عنها. بل هناك أقاويل غير دقيقة هنا وهناك، تروي عن هذه الأسرة التي اشتهرت بمهنة العطارة. فأبوه كان من كبار العطّارين في مدينة نيشابور، بل ربما أصبح بعد مدّة مالكاً لجميع حوانيت العطارة هناك. وكان هذا الوالد من مريدي الشيخ الصوفي قطب الدين حيدر في قرية (كَدكَن). ويتكلّم فريد الدين على والده في كتابه (أسرار نامه) فيقول بأن أباه مات شيخاً مسناً وهو بعد صبي، ويردف: «ربِّ ارحم هذا الرجل الطاهر القلب. قد ابيضّ شعره في الإسلام فلا تتركه في

(١) عزام، ص٥١

ظلمات اليأس»، ويقول في المقال عينه بأن والده دعا له وهو يحتضر. وهكذا أخذ فريد الدين عن والده هذه المهنة التي تكنّى بها، ومارسها في بداياته، وقد أنعمت عليه هذه المهنة بالثراء والمكانة. والعطّار في ذلك الزمان كان بمنزلة الطبيب، يداوي المرضى ويعالجهم في صيدليته. يقول العطّار في (مصيبت نامه):

بدارد خانه پانصد شَخْص بودند
كه در هر روز نبضم مي نمودند
ميان آن همه كفت وشنيدم
سخن به أز يس روئي نديدم

أي ما معناه: «كان في دار الدواء خمسمائة إنسان، أجسُّ نبضهم كلَّ يوم. وفي هذه الضوضاء والمحاورات لم يُواتني كلام خير من هذا»[1].

أمّا والدته فكانت إمرأة صالحة تقيّة إلى حد بعيد. بكاها فريد الدين عندما ماتت، وقال بأنها كانت سروره في الدنيا، وأردف: «لم يكن لي أنس إلاّ بأمي وقد ذهبت، كم شدَّت أزري هذه الضعيفة التي كانت خليفة في مملكة الدين، لقد كانت ضعيفة كالعنكبوت ولكنها كانت لي حصناً ووَزراً. . . وكانت رابعة الثانية بل أتقى من رابعة. بقيت تسعة وعشرين

(١) المصدر عينه، ص٥٣.

عاماً تلبس حقير الثياب وخشنها. وكانت تقطع الليل دعاء وبكاء»[1].

ذكر عدد من المؤرخين بأنه كان له عشرة أبناء، ويقول (روحاني) في مقدمة ترجمته الفرنسيّة لإلَهي نامه: «إنَّ العطّار كان له عشرة أبناء وقد وقعوا في أسر قطاع الطريق. . وهؤلاء اللصوص أخذوا يضربون أعناقهم الواحد تلو الآخر، والعطّار في كلِّ مرّة يرفع عينيه إلى السماء وهو يبتسم، وما أن جاء دور ابنه العاشر والأخير حتى قال ذلك الإبن: ما أقسى ذلك الأب الذي يبتسم وهو يرى أولاده يموتون تلك الميتة، فيردُّ العطّار قائلاً: بنيَّ العزيز! لا حول لنا ولا قوّة أمام من يأمر بهذا ـ أي الله ـ وما أن سمع اللصوص ذلك الجواب حتى أطلقوا سراح الولد العاشر، وألقوا بأنفسهم على قدميّ أبيه يطلبون المغفرة وقد تابوا وأصبحوا من مريديه». أمضى العطّار زمناً في حانوته هذا، وبعد أن زهد، ترك العطارة وانصرف إلى العبادة والتأليف والسفر.

يروي دولتشاه حبراً مشيراً عن أسباب تركه حانوت العطارة فيقول بأنه كان ذات يوم جالساً في حانوته في أُبهته،

(١) من منظومة العطّار (خسرو وكل) وقد نظمها بعد (منطق الطير) الذي نظمه سنة ٥٧٣هـ، وكان العطّار يومذاك في الستين من عمره، وتكون أمه قد عاشت حتى ذلك التاريخ أو بعده بقليل

وخدمه حوله، فجاء مجنون، فنظر في الحانوت وتنهّد ودمعت عيناه. فأمره العطّار أن ينصرف، فأجاب الدرويش أيها السيد إنَّ حملي خفيف وليس عندي إلاَّ هذه الخرقة، ويسيرٌ عليَّ أن أفارق هذه السوق عاجلاً (يعني الدنيا) وخير لك أنت أن تفكّر في أحمالك وتتدبَّرَ في أمورك. قال العطّار: كيف تذهب من هذه السوق؟. فأجاب الرجل: هكذا... وخلع أسماله ووضعها تحت رأسه وأسلم روحه لبارئها.

يمكن أن تكون هذه القصّة مستمدَّة من منظومة العطّار (ميلاج نامه)، التي يروي فيها حكايته بعد أن فرغ من تأليف كتابه (جوهر الذات)، وأقام في خلوته حيراناً قلقاً، وتفكّر في ليلة عمّا عساه الله يلهمه بعدُ: «فرأى رجلاً مجنوناً يقترب منه ويسرُّ إليه أموراً ويسأله: ما له مكتئباً وقد صاحبه التوفيق في طريقه. وأوصاه بأن يكشف الأسرار في كتابٍ آخر يسميه باسمه. فسأل العطّار هذا المجنون! ما اسمك؟ قال: أنا منصور الحلاَّج، واسمي في العالم ميلاج. ثمَّ غاب الرجل عن العطّار»[1]. ومما يذكر أن العطّار تأثر إلى حدٍ بعيد بالحسين بن منصور المعروف بالحلاَّج والمتوفي صلباً سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م.

مهما يكن من أمر صحّة هذه الأخبار، فالثابت أنَّ العطّار

(١) كليات العطار، ص٥٩٩/ ٦٠٠.

ترك الحانوت، وانصرف إلى العبادة والتصوّف. من خلال كلامنا على أسرة العطّار، رأينا بأنّ والده كان من أهل الصلاح والتقوى، وكان من مريدي الشيخ قطب الدين حيدر. وأمّه كما ذكر كانت أيضاً من أهل البرّ والعبادة والتصوّف. وفريد الدين الذي عاش في كنف هذين الوالدين سار على خطاهما. فالتحق في بداياته، على غرار والده، بشيخ أبيه قطب الدين حيدر، وقد أهداه كتاباً من كتبه سمّاه باسمه (حيدر نامه). يقول فريد الدين العطّار في كتابه (تذكرة الأولياء): «وباعثٌ آخر لتأليف الكتاب هو أنني بلا سبب كنت أشعر منذ الطفولة بمحبّة زائدة تجاه هذه الطائفة، تموج في قلبي كما كانت أقوالهم تسعدني في كلّ آونة»[1]. وقبل أن يهجر الصيدلية وينصرف كلياً إلى الحياة الصوفيّة والعبادة، ألّف في هذا الحانوت كتابيه: (مصيبت نامه)، و(إلّهي نامه). يقول في (مصيبت نامه):

مصيبت نامه كاندوه جهانست
إلّهي نامه كأسرار عيانست
بدار وخانه كردم هر دو آغاز
چكويم زود رستم زين وآن باز

أي ما معناه بالعربية: «مصيبت نامه، هي حسرة العالم، وإلّهي نامه هي الأسرار المشهودة، بدأتهما كليهما في (دار

(1) تذكرة الأولياء، ج١، إيران ١٣٢١هـ، ص٥

الدواء)، وفرغت منهما سريعاً».

ترك العطارة والجاه والمال، وانصرف كلياً إلى الفقر، وصار طعامه الخبز الجاف، يبلّله بدموع العينين، قائلاً: «وعندما أقيم مائدة من خبز خشن، فإنني أبلّله بدموع عينيّ»[1]. وصار يحبُّ العزلة، ولا يثق بالناس، ويكثر من التأمُّل والتعبُّد، فيقول: «. . . يقولون لي، ما له قد آثر العزلة، لا إنني أصادق الله في هذه العزلة. ولا صديق لي بين الخلق، وإن كنت أفعل ذلك فهذا لأنني في الطبع كمالك الحزين»[2].

لم يمدح أحداً من كبار القوم، أو من أصحاب القصور، فيقول ما ترجمته: «شكراً لله، فلم ألجأ إلى قصر، ولم أكن ذليلاً لكلّ حقير. . . ولم أطعم خبز ظالم مطلقاً، ولم أختم كتاباً بذكر أحدهم مطلقاً».

إلتقى العطّار بشيوخ الصوفيّة في زمانه، وأول لقاء له كما ذكرنا كان مع الشيخ قطب الدين حيدر. وبعد أن ترك حانوت العطارة صحب الشيخ ركن الدين الآكاف، وأمضى في صحبته أربع سنوات، ونذكر من شيوخ الصوفية الذين التقى أيضاً بهم: الشيخ مجد الدين البغدادي المقتول سنة ٦٠٦هـ أو ٦١٦هـ وكان البغدادي طبيب سلطان خوارزم، وعنه أخذ العطّار علم

---

(١) من منطق الطير.

(٢) من مقدمة (تذكرة الأولياء) للقزويني.

الطب. وكان العطار أيضاً من أنصار الشيخ نجم الدين كُبرى، وقد ذكره في كتابه (مظهر الصفات)، إذ يقول: «كنتُ عند شيخي وسندي الشيخ نجم الدين الكُبرى قدّس سره»، فحدَّثني هذا الحديث مغلب عليه الوجد والحال القوي، فبكيت معه، فحقرتُ الدنيا في أعيننا، وقلعنا حب الدنيا عن قلوبنا»[1].

يذكر أيضاً أنه كان قد تأثَّر بالشيخ أبي سعيد ابن أبي الخير المتوفي عام ٤٤٠هـ، وقد ذكره في كتبه: (مصيبت نامه)، و(إلّهي نامه)، وفي (منطق الطير)، وفي (أسرار نامه). وتأثَّر أيضاً بأبي حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م ولاسيما أن الغزالي كان شافعي المذهب وكذلك كان العطَّار، وكلاهما يكرهان الفلسفة ويحاربانها وقد قال:

«ـ وكيف تعرف عالم الروحانيين من بين حكمة اليونانيين؟..

ـ ولن تكون رجلاً في حكمة الدين إن لم تفارق هذه الحكمة.

ـ وكلُّ من يحمل هذا الاسم (أي فيلسوف) في طريق العشق فلن يكون خبيراً في مجال الدين بالعشق.

(١) مظهر الصفات، ص٢٩٥، مذكر بأن هناك شكاً حول صحة نسبة هذا الكتاب إلى العطّار.

ـ وبحق المعرفة، كم أفضّل هنا كاف الكفر على فاء الفلسفة.

ان كرههما للفلسفة يرقى إلى أن طبيعة الفلسفة تعتمد على العقل؛ بينما التصوف يقوم على القلب، على الرغم من تأثره بمنهجي الفلسفة وعلم الكلام في العرض والاستدلال. ونذكر أيضاً في سياق مقارنتنا للتشابه والتأثر بين الغزالي والعطّار، أن الغزالي ألّف كتاب (رسالة الطير)، وألّف العطّار (منطق الطير).

أمّا ثقافة العطّار الواسعة فقد استمدّها من أصول الفقه الإسلامي، فكان حافظاً للقرآن الكريم، وللحديث الشريف. مطّلعاً على علم الكلام ودارساً له، كما انه كان على علم بالتاريخ والفلسفة. يُذكر أنه عندما كان يريد أن يؤلف كتاباً في موضوع معيّن، يقرأ حول هذا الموضوع عشرات الكتب. يقول دولتشاه في (تذكرة الشعراء): أنه قرأ كتباً كثيرة حتى يجمع مادة كتاب (تذكرة الأولياء)، حتى وصل مجموع ما قرأه من كتب السير والتراجم أربعمائة كتاب»[1]. ألمّ بكلّ علم معروف في عصره وانتهى به الأمر إلى القول ان العلوم الدينية وحدها جديرة بالطلب بل لعن من يشتغل بغيرها. ويردف: أنه لا يقول هذا مقلداً ولكن هدته إليه تجاربه، فقد نال شمّة من كل علم،

(١) تذكرة الشعراء، ص١٨٧.

وأخذ لُمعة من كل لون. وأنه «قرأ كل كتاب فلم يجد الكتب إلاّ حُجباً»[1].

هـذا وكـان العطّـار على اطـلاع واسـع بـالآداب، وبعلـم الشعر من أوزان وقوافٍ، وكان على اطلاع بالديانات السماوية السابقة. يذكر أيضاً أنه كان يدرك قوانين علم النجوم، وهذا ما نلاحظه في كتابه (منطق الطير).

يروي الباحثون بأنّ العطّار بعد أن تَبدّل وترك حانوت العطارة، صحب الشيخ ركن الدين الآكاف مدّة أربع سنوات. سافر بعدها إلى مكّة المكرّمة، وفي طريق عودته إلى نيشابور مرَّ ببغداد، والتقى هناك الشيخ محيي الدين البغدادي الذي ألبسه خرقة الصوفية.

يُـروى بـأنـه أمضـى ثـلاث عشـرة سنـة فـي مشهـد الإمـام الرضا عليه السلام. ويُذكر بأنه بدأ رحلاته هذه وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره أو قارب الأربعين، بدليل أنه نظم كتابه (إلّهي نامه) في حانوت عطارته، وفيه يذكر السلطان سنجر ذكر معاصر له، وسنجر هذا مات سنة ٥٥٢هـ، والعطّار يومذاك كان في حدود الأربعين. يذكر القزويني في مقدّمة كتاب (تذكرة الأولياء)، وفي أثناء كلامه على شاعرنا، أن العطّار ساح في أربعـة آفـاق الأرض، فسـافـر إلـى مكّـة، ومصـر، ودمشـق،

(١) مصيبت نامه، ص١٩٢ (مخطوط بالمتحف البريطاني).

والكوفة، والري، وخراسان، وعبر سيحون، وجيحون، ودخل الهند وتركستان، ثمّ عاد أخيراً إلى نيشابور[1]. نسمعه في (مختار نامه) يقول: «إلى كم أطوف في أرجاء العالم لقد سئمتُ العالم ومتاعبه».

ويقول أيضاً: «سافرنا ثلاثين عاماً ورحلنا مئات آلاف من الرحلات حتى أدّاني طريقك إلى حضرتك». ونسمعه أيضاً يقول في (مختار نامه): «طوّفنا عمراً في كلّ ناحية، وطرنا كالريشة حول رجال كالجبال. وتركنا دارنا سائلين ورجعنا ملوكاً». ذكر المؤرخون واقعة اضطرته إلى مغادرة نيشابور والسفر بعيداً في أرجاء الأرض، ولا نعرف مدى صحّة هذه الرواية التي تقول: «لما كتب مظهر العجائب وبالغ في مدح عليّ وتعظيمه وأسقط أسماء الخلفاء الثلاثة على غير عادته في كتبه، وصرَّح بتشيُّعه، ثار عليه الناس في نيشابور واتهمه فقيه اسمه السمرقندي بالزندقة، وأهاج عليه العامة، واستعدى عليه الوالي بُراقاً التركماني، وأفتى بوجوب قتله وهجمت العامة على دار العطّار وخرّبوها واستطاع هو أن يهرب، وعاد إلى الضرب في الأرض على كبر سنّه. ذهب إلى مكة حيث كتب (لسان الغيب)، واصفاً فيه ما أصابه في هذه المحنة، ولعن

(1) يراجع أيضاً: كتاب لسان الغيب ص٤٢٥، والكليات المخطوطة في ديوان الهند

الرجل الذي أثار عليه الناس فأخرجه من وطنه على الكبر»[1].

ذكر المؤرخون بأن العطّار ألّف مائة وأربعة عشر كتاباً، أي بعدد سور القرآن الكريم. بيد أن ما وصل إلينا وما تبقّى من هذه الكتب لا يتعدّى التسعة. نعم لقد كتب العطّار بإسهاب، فنسمعه يقول في منظومته (خسرو وكَل): «إن من الناس من رماه بالثرثرة»، وفي (منطق الطير) يعلّل ذلك ويقول بأنه طلب من قلبه أن يسأل الحقيقة بالقول القليل، فأجابه:

كفـت غـرق آتشـم عيبـم مكـن

مـن بسـوزم گـر نمـي گـويـم سخـن

أي مـا معنـاه: أقـلّ اللّـوم فـأنـا فـي نـار وإن لـم أنطـق احترقت. وكذلك نسمعه في (خسرو نامه) يقول:

كس گر چون مني راعيب جويست

همين گويد كه أو بسيار گويست

وليكـن چـون بسـي دارم معـانـي

بسي گويم تو مشنو، مي تواني

أي ما معناه: «إن الذي يعيب أمثالي يقول إنه ثرثار ولكن عندي معاني كثيرة فلا جرم إن أكثرتُ القول فلا تسمع إن شئت»[2].

(1) التصوّف وفريد الدين العطّار، ص٥٦.
(2) المصدر عينه، ص٦٢

يذكر دولتشاه أن مثنويات العطّار بلغت أربعين ألف بيت، ويُذكر في (آتش كده) أنها مائة ألف، وجاء في مقدمة القزويني لتذكرة الأولياء: «أن الشاعر عدّد ثلاثة عشر كتاباً من كتبه ثمّ قال: إنّ عدد أبيات هذه الكتب وكتبه الأخرى ـ وكلّها أربعون كتاباً ـ مائة ألف وألفان وستون بيتاً».

معظم كتب العطّار كانت في الشعر باستثناء (تذكرة الأولياء). ولو اعتمدنا على الكتب المتوافرة، والتي ذكرها المؤلف في ثنايا كتبه، والتي أحصاها الباحث عبد الوهّاب عزّام في كتابه (التصوف وفريد الدين العطّار) فهي كما يلي: خسرو نامه، أسرار نامه، منطق الطير، مصيبت نامه، الديوان، شرح القلب، مختار نامه، إلّهي نامه، أُشتر نامه، جوهر الذات، خسرو وكَل، تذكرة الأولياء، بلبل نامه، مظهر العجائب، بيسر نامه، ميلاج نامه، حيدري نامه، پند عطار، وصلت نامه، جمجمه نامه، الصراط المستقيم، لسان الغيب.

لم يُترجم من كتبه إلى العربية سوى كتابي (پند نامه) و(منطق الطير). إن كثرة الكتب التي ألّفها العطّار حدث بعدد من الباحثين والمؤرخين إلى نسبة كتب ليست له إلى مجموعة مؤلفاته، مثل (كنز نامه) و(مفتاح نامه).

رأينا كيف أن المؤرخين لم يجمعوا على تاريخ معيّن،

حدّدوا فيه سنتي ولادة العطّار ووفاته، كذلك الأمر بالنسبة إلى قصّة موته. منهم من قال بانه قتل على أيدي المغول[1]، وآخرون زعموا غير ذلك. ونذكر ههنا ما رواه دولتشاه عن مقتل العطّار، وهي قصّة غريبة تدعو إلى الشك، قال: «أخذ المغول الشيخ فيمن أخذوا من أهل نيشابور وقد همَّ مغوليٌّ بقتله فسارع إليه أحد مريدي الشيخ وتضرّع إليه أن يعفو عن الشيخ الهرم، ويقبل فداءه بألف درهم فقبل المغولي، ولكن الشيخ نصحه ألا يقبل هذه الفدية فإن مريديه يفتدونه بأكثر منها. وجاء مغولي آخر فقال أنا أفتدي هذا الرجل بمخلاة من تبن، فقال الشيخ: إقبل هذا الفداء فلستُ جديراً بأكثر منه، فغضب المغولي الذي أسره وقتله» . .

مات العطّار فقيراً، وهو الذي كان يملك جميع حوانيت العطارة في نيشابور، وكان صاحب مال ومجد، فإذا الكل صار زائلاً في عينيه وترك كلّ شيء ليرحل في الأرض فقيراً معدماً، سالكاً طريق العرفان الوعر، يبتغي وجه ربّه الأعظم الباقي. عاش متأملاً زاهداً، وكما قال: «عاش ولم ير وجه الحياة»[2]. يقول في كتابه (منطق الطير): «أنا عطّار ومانح أدوية، ولكن

(١) المغول. اسم دولة أنشأها جنكيزخان (١١٦٧ ـ ١٢٢٧)، وأخضع جميع الدول الواقعة بين الصين والبحر الأسود، من سلالته: باتوخان وهولاكو وتيمورلنك

(٢) مختار نامه، الكليات، ص٩٩١

قلبي يحترق والجاحدون لا يشعرون. هأنذا أعاني آلامي وحيداً. وحينما أضع خبزي اليابس على مائدتي لا أجد إلاَّ دمعي بلالاً، ولا أجد غير قلبي شواء، ولكني أضيف على هذه المائدة جبريل أحياناً. فكيف أقبل، وجبريل رفيقي، لقمة من لئيم، حسبي بلاغاً خبزي، وحسبي شرفاً قناعتي. إن الحق كنزي الذي لا يفنى فكيف تأسرني مِنَّة؟ كيف أعبّد قلبي لإنسان أو أتخذ أحداً سيداً؟... ما طعمت طعام ظالم. ولا أهديتُ كتاباً من كتبي إلى غاشم، إنما أمدح نور روحي. ولا غذاء لبدني إلاَّ قوة هذا البدن لشد ما حرّرت نفسي من الناس جميعاً».

أمضى العطّار ـ حياته مهموماً، يحمل مصائب الحياة ومصاعبها، يقول ما ترجمته:

أقلبي كم تحيش وكم تقولُ وحان لقولك الصمتُ الطويلُ
فكم جمّعت، والدنيا ضرارُ مصائبَ صبّها الفلك المدارُ
فسطّرها على القرطاس طُرّا وفي الماء اطرحنها واستقرّا[1]

(1) التصوف وفريد الدين العطّار، ص٥٨.

العطار والتصوف

التصوُّف كما يُعرَّف هو الطريق إلى الفناء في الله تعالى، إنّه العلاقة بين الإنسان والله، والكون الفسيح، هذه العلاقة قوامها الحبُّ الكوني، والوجدُ، والشوق، والحنين الهائم «إلى ساحات الأنس والنجوى وما إلى الأس والنَّجوى من تطلُّع وتحرُّق وإلهام وفيض وإشراق»[1].

لم يكن للعطّار كتاب واحد يشرح فيه أفكاره الصوفيّة، بل كانت آراؤه مبعثرة في شعره، وفي كتبه كلّها، التي تحوي كلَّ مسائل التصوّف، فصوّرها وبيَّن معانيها، ودقائقها. وقد يسهب في أكثر الأحيان نتيجة فنائه المطلق في تصوّفه، ومن أجل إبانة ما يرمي إليه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ذلك أن

(١) طه عبد الباقي سرور، من أعلام التصوّف الإسلامي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦، ص٦٣

العطّار كغيره من المتصوّفين، لم يبح بكلّ ما في صدره من أسرار، فنسمعه يقول: «إنّ الروح التي قصّت قِصّة الحبيب قُطع لسانُها فما تستطيع بعدُ كلاما». وقال أيضاً في هذا المجال: «إلام تتحدَّث عن الحب؟ تحدَّث عن أمر يُستطاع ذوقه»، «وعلى المرء أن يصمت وقلبه يمزّقه الحزن»، وقال أيضاً: «كن كالبحر واخبيء جواهرك في نفسك». وكأن به يعمل جهده من أجل المحافظة على الأسرار التي تختبيء في قلبه، وهو ضنين بها، يقول: «كم في الروح والقلب من أسرارقيّمة، ولكن ما عسى أن أصنع وقد سُمِّر لساني؟»، ويردف: «إذا لاح لك السرُّ الذي تُخطِر من أجله روحك فاخفه حتى من نفسِك». ونسمعه يقول في (جوهر الذات) و(مختار نامه) ما ترجمته: «قد ذهبا وبقي الزمان في حيرة، على أنني لم أثقب لؤلؤة من مائة: وا أسماه مئات آلاف من الدقائق تبقى محجّبة على غير المحرَم»، ويردّد في المصدر نفسه: «لا أحد يفقه سرَّ اللغة التي بينك وبيني»، «عالمك وعالمي وراء الإدراك». ويغلب عليه الوجد، فيتيه في عالم العرفان، وتتَّضح الرؤية لديه، وتزول السدود أمام عينيه، ويعمُّ النُور الداخلي في كلّ أرجاء لا وعيه المظلمة. وهكذا تنقلب الأسرار في داخله إلى كشف مرئي ويقول كلّ شيء، إذ لم يعد لديه أيّ سر: سأقول كل ما لم يُقل، أيُّ سرّ بقي محجوباً؟ لقد رأيتُ وجه الحبيب

جهرة»[1] وإذا بنا نسمعه ينتفض صارخاً:

من خدايم من خدايم من خدا فـارغـم أز كبـر وكينـه وزهـوا
سـربيـسـر نـامـه را پيـدا كنـم عاشقا نرا درجهان شيدا كـم[2]

أي ما معناه بالعربية:

أنـــا الله أنـــا الله أنـــا الله فارغٌ من الحقد والكبر والهوى
أيـن أسـرار بيـسـر نـامـه وأحيِّـرُ عشّـاق العـالَـمْ

ويقول في المصدر نفسه:

بـاتـوكـويـم سـرّ أسـرار نهـان أي بـرادر نقـش را نقـاش دان

أي: «أقول لك سر الأسرار الخفيّة، إعلم أخي إن النقش هو النقّاش».

العطّار وأمثاله من كبار أهل التصوّف يمتلكون يقظة تامة، ولاسيما أنهم قد تحرّروا من الإجهاد والضغوط والإرهاص والقلق، بوساطة التأملات، والترقي بالنفس نحو مصاف الكمال تقريباً، فيتحقق بالتالي لديهم الوعي الصافي، والجلاء البصري، والذكاء الخلّاق الوقّاد، واستقراء المستقبل البعيد، من خلال شفافية صافية مميّزة، فانكشف أمامهم الخزّان اللّامحدود من الطاقة الفكرية الكامنة في أعماق الإنسان

(١) الكليات، ص٥١٥.
(٢) بيـرنامه.

متجاوزين كل العقبات والحُجُب. لقد فضّ المتصوفون أسراراً علمية منذ زمن بعيد. فالذرّة التي اكتشف كنهها العلماء مؤخراً، وتبيّن لهم أن في داخلها عالماً من (الألكترونات) يتحرّك حول نواة مؤلفة من (بروتون ونيوترون)، وهذه المادة تتحوّل إلى طاقة والعكس صحيح. فلقد سبقهم العطّار بأكثر من سبعمائة سنة وقال في (منطق الطير): «ليس في العالم صغير وكبير، فالذرّة فيها الشمس والقطرة فيها البحر، وإن شققت ذرّة وجدت فيها عالماً، وكلُّ ذرّات العالم في عمل لا تعطيل فيه...».

هكذا وصل هذا العارف العاشق بروحه وإلهامه وقلبه إلى ما توصّل إليه العلم الحديث في عصرنا هذا. يقول العطّار بأنَّ الإنسان هو خلاصة العالم، وهو العالم الأصغر الذي انطوى فيه العالم الأكبر، وهو روح العالم الشاعر بنفسه وبالله، ومن أجله خلق كل شيء... وكما قال الشاعر:

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر
وانت الكتاب المبين الذي   بأحرفه يظهر المُضمَر

ماذا قالوا في العطار

ماذا قال الشعراء والنقّاد في شاعر العرفان هذا؟ يمكن أن نلملم عدداً من هذه الأقوال، فنعرف بوساطتها شيئاً عن منزلة العطّار بين رجال الفكر والشعر الأقدمين. يُروى بأن جلال الدين الرّومي قد مرّ بالعطّار في نيشابور وكان برفقة أبيه وهما في طريقهما إلى العراق، فقد بارك العطّار هذا الولد النبيه وأعطاه كتابه (أسرار نامه) ـ فقال المولوي فيما بعد إنه من أتباع العطّار، ويدور حول كوكبه[1]. وقال أيضاً كما بيّنّا سابقاً «بأن العطّار طوّف مدن العشق السبع وبقينا[2] في منعطف شارع واحد». ويُروى أيضاً بأن جلال الدين الرومي قال مرّة: «إن روح الحلاّج تجلّت في العطّار». ونسمع قول محمود

(١) نفحات الأنس.

(٢) يقصد سنائي والرومي.

الشبستري في معرض كلامه على العطّار في منظومته (كلشن راز) ما معناه: لا يلحقني عار بشعري هذا فإن مثل العطّار لا يأتي في مائة قرن»[1] وبالفارسية:

مرا أز شاعري خود عار نايد   كه در صد قرن چون عطار نايد

وقال الشاعر كاتبي ابن نيشابور: أنا مثل العطّار من حديقة نيشابور، بيد أنَّ العطّار هو الورد وأنا الشوك»[2]. أمّا عبد الرحمن الجامي صاحب (نفحات الأنس) في تراجم أهل التصوّف، فيعظم العطّار ويشيد بأدبه وفكره، ويسمّيه (سيد الطائفة)، وقال: «إن شعر العطّار كان يُسمّى سوط السالكين. أي أنه كان يدفعهم في الطريق، ويحثهم على الجدّ فيها»...

والعطار نفسه الذي يأبى الفخر والتباهي، يعلن في إحدى جذباته عظمة تجلّيه، وابتهاجه لِما فُتح أمامه من دروب، وما أُوتي من أسرار، فيقول:

كردي أي عطار بر عالم نثار   تافه أسرار هردم آشكار
أز تو پر عطرست آفاق   وازتو پر شورند عشاق جهان
كه دم عشق على الاطلاق زن   كه نواي پرده° عشاق زن
عشق تو عشاق را سر مايه داد   عاشقان را دايم إين بيرانه داد

---

(١) التصوّف وفريد الدين العطّار، ص٦١.

(٢) يراجع دولتشاه، في ترجمته لكاتبي، وهو شمس الدين كاتبي المتوفي سنة ١٤٣٦م/ ٨٣٩هـ ولد في نيشابور، وله خمسة مثنويات قصصيّة صوفية.

ختم شد بر توكه چو خورشيدي ونور

«منطـق الطيـر» و«مقـامـات طيـور»

أهل صورت غرق گفتار منست أهـل معنى مـرد أسـرار مـسـت

اين كتاب آرايش است أيام را خـاص را داده نصيـب وعـام را

نظم من خاصيتى دارد عجيب زا نكه هردم بيشتر دارد نصيب

أي ما معناه كما ترجمه عزّام: «لقد نثرت على العالم يا عطار نوافح الأسرار، مائة ألف كلّ لحظة. فامتلأت منك آفاق العالم عطراً، وعُشّاقه هُياماً وهُترا. لقد كان شعرك مدداً للعشّاق، وزينة في الآفاق، وقد ختم عليك كما تجلّى على الشمس النور، منطق الطير ومقامات الطيور. إن أهل الصور غرقى أقوالي، وأهل المعنى أهل لأسراري وقد زان الدهر هذا الكتاب العجيب، وللخاصة والعامة منه نصيب. ويقول أيضاً:

لن يُرى مثلي ما مرّ الزمان، يُجري على القرطاس يراع البيان، من بحر الحقيقة أنثر الدر الجميل، وخُتم الكلام عليَّ وهاك الدليل. لنظمي خاصة عجيبة، تزيد معانيه كلّ لحظة»[1]

ويقول العطّار في (مختار نامه): «إنَّ أبياته لم تيسَّر لأحد قبله، ولم يشتمل على مثلها ديوان شاعر. وفي (جوهر الذّات)

(١) عزّام، ص٦٠

يعلن إعجابه بالكتاب، ويوصي بتكرار قراءته»[1].

ويوضح مكانته في التصوّف قائلاً:

من بوصلت عارفي مطلق شدم عارفي رفته تمام من شدم
باتوگويم سر أسرار نهان أي برادر نقش را نقاش دان

والذي معناه: اني أودُّ الوصول إلى العرفان الكليّ، ولقد أصبحت في طريقه القويم، فيا أخي دعني أقول لك أسرار هذا العالم غير المشكوفة. إنك ترى هذه النقوش، بيد أن هذا النقش هو النقّاش نفسه.

---

(١) الكليات، ص٥٨١.

منطق الطير

من أهمّ كتب العطّار، أذاع فيه آراءه في التصوّف ومعتقداته، وطريقه نحو بلوغ الهدف الأسمى في الحياة، والمقامات، والأحوال، والمراحل المتنوعة التي يسلكها المريد. أخذ العطّار اسم الكتاب من الآية القرآنية الكريمة: ﴿وورِثَ سُليمانُ داوُدَ وقالَ يا أيُّها النّاسُ عُلمنَا مَنْطِقَ الطيرِ وأُوتِينا من كُلِّ شيءٍ إنَّ هذا لَهُوَ الفضلُ المبينُ﴾ النمل/ ١٦.

طيور الكتاب حقيقية، باستثناء إلّه الطير المنشود وقد أسماه (سيمُرغ)[1]، فهو طائر وهمي نسبه العطّار إلى بلاد الصين. يرقى اسم هذا الطائر إلى (سينا ميرغا) في (الأفستا)، و(سين مورغ) أو (مورو) في البهلويّة، وهو طائر أسطوري لا

(١) (سي مُرغ): بالفارسيّة تعني ثلاثين طائراً. (سي): تعني ثلاثين، و(مُرغ): تعني طائراً.

يعيش إلاّ حيث تكون السعادة، والرائحة الطيبة، والخير. فهو قديم عند الإيرانيين، تناوله العطّار من ماضٍ بعيد وألبسه حلّة إسلامية، إستقاها من آيات القرآن الكريم.

صاغ العطّار (منطق الطير) تحت فنّ المثنوي، أي التزام القافية بين شطري البيت الواحد، وهذا فن تميّز به الأدب الفارسي وحده، ولم تعرفه العربية في ذلك الزمان. وقد جعله على وزن الرمل المقصور: (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتُ)، وعدد الأبيات قد يصل إلى ٤٦٥٠ بيتاً، وكان إنجاز الكتاب قد تمّ في حدود عام ٥٨٣هـ. وهناك نسخ منه تشير إلى أن نظمه تمّ سنة ٥٧٠هـ أو ٥٧٣هـ[1].

يستهلُّ المؤلف مقدمة الكتاب بالمناجاة، ثمّ يأتي إلى مدح الرسول الكريم ﷺ، فمدح الخلفاء الأربعة، ويخلص إلى حديث في ذمّ التعصُّب بين السنّة والشيعة، وإلى مكالمة بين عمر بن الخطّاب وأويس القرني، ثمّ يتناول ماذا حدث بين الإمام علي عليه السلام وقاتله، ثمّ يورد حديثاً للرسول ﷺ، وقولاً في شفاعة الرسول ﷺ. هذه هي الأمور التي تناولتها المقدمة، ليبدأ بعد ذلك بسرد القصّة.

يقسمها المؤلف إلى خمسة وأربعين مقالة، فالطيور اجتمعت

---

(١) عزّام، ص١٠٥

يـــا طيـــور الغـــاب هـــلاّ تسمعـــون

هـــدهـــدٌ فـــي قلبـــه الســـرُّ المصـــون

قـــد وجـــدنـــا ملـــك الأطيـــار هيّـــا

لجبـــالِ القـــافِ فـــالعمـــرُ يهـــون

وتشاكت فيما بينها عن مدى حالتها السيّئة من التفرّق والفوضى، وذلك نظراً لعدم وجود رئيس أو ملك يجمع كلمتها ويوحِّد صفوفها إنّهم يحاولون البحث عن إلّه واحد يتوجّهون إليه بالعبادة. وقد جعل العطّار من الهدهد الأمير المنتخب من قبل الطيور، يتولّى أمورها وهم في الطريق نحو (السيمُرغ). وضعوا التاج على رأسه وتقدَّمَهم، يخطب فيهم، ويقدِّم المشورة والرأي. وجاء في القرآن الكريم: **﴿وتفقَّدَ الطَّيرَ فقال مالي لا أرى الهُدهُدَ أم كان من الغائبين﴾ النمل/ ٢٠.**

يقول الهُدهُد: «خبرتُ الدهر، واعتزلت الناس، وجهدتُ في طلب الحق، وصحبت سليمان، وطوّفت الأرض سهلها وحزنها، ودانيها وقاصيها، وعرفتُ أنَّ لنا ملكاً ولكني عجزت عن المسير إليه وحدي. فإن تعاونّا استطعنا أن نبلغ مكانه. ملكنا اسمه السيمُرغ، وراء جبلٍ اسمه قاف[1]، هو منّا قريب ونحن بعيدون، هو في حرم جلاله، لا يحيط البيان بوصفه، ودونه آلاف من الحُجُب. ويردف الهدهد:

---

(١) جبل قاف. هو جبل أسطوري، يطوف الأرض ويحيق بالأفق من كل جانب، ويتألف من زبرجدة خضراء عظيمة اكسبت السماء اللون الأخضر، وتزعم الأسطورة أيضاً بأن كلّ جبال العالم ترتق بأصلها إلى جبل قاف الذي تغرب الشمس فيه، ومنه تطلع. ويمثل حرف القاف بحساب الأبجدية الرقم مئة، وهو الحرف الأول من القرآن الكريم. فمن القاف إلى القاف، يحيط بالعالم من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر، ولتُراجع سورة (ق) في القرآن الكريم

وأول العهد به أنّه كان طائراً في ظلمات الليل في سماء الصين، فسقطت من جناحه ريشة فقامت قيامة الأُمم تعجباً من ألوانها العجيبة. ألم تسمعوا الأثر: أطلبوا العلم ولو في الصين؟ ولولا أن ظهرت هذه الريشة في هذا العالم ما ظهر طائر منكم» وانتهى الهدهد من خطابه الذي توجّه به إلى الطيور المجتمعة. فلمّا سمعت هذه مقال الهدهد هاجها الشوق إلى السيمرُغ وأزمعت الرحيل إليه. . .

وهكذا تتوالى المقالات يسرد فيها أعذار الطيور، وهي بمكانة أعذار السالكين في الطريق إلى الحضرة العليّة. ويورد أسئلتهم ومشاوراتهم للهدهد حول الطريق وما فيه من عقبات وصعاب. ويعرض العطّار للأودية السبعة التي عليهم سلوكها للوصول إلى هذه الحضرة، وهي أودية العشق»، والمعرفة، والإستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر، والفناء ويصوّر هذه الرحلة الشاقّة الصعبة بدقة، سارداً خلالها مائة وإحدى وثمانين حكاية وقصة، يوضح فيها أفكاره. وأطولها قصة الشيخ صنعان. إنّ غاية العطّار في (منطق الطير) هي شرح كيفية الإتحاد مع الذات العليّة، والشفاعة للنبي محمّد ﷺ وحده. إنّها تمثّل سير الروح في المدارج المتنوّعة، ووصولها إلى حدّ الكمال، والإتّحاد، والوحدة مع الله.

يمكننا القول أنّ (رسالة الطير) للغزالي هي المرجع

الرئيسي لـِ (منطق الطير)، فطيور الغزالي تبحث عن العنقاء الملك، وطيور العطّار تبحث عن السيمُرغ. في (منطق الطير) يورد الكاتب آراءه في المعتقدات الصوفية، وفي أهمية المرشد للمريد. كما أنه يحدد العلاقة بين المتصوّف والله، بغية إدراك الفناء في الله والخلود فيه. ويتكلّم أيضاً على العشق الإلّهي. وهو القوة الخفيّة التي تدفع السالك إلى المضي قدماً في الطريق، رغبة في لقاء المحبوب الأزلي. فالطريق طويل وشاق، ومليء بالمتاعب. وعلى الطيور أن تقطعه بوعورته وأوديته الصعبة المسالك، وهي خالية من الأحمال، كالمال، والملك، وكلّ متاع في هذه الدنيا. وعليها أن تفقد الشعور بالمكان والذّات، وتصير في حالة من النسيان الكليّ والفناء، كما تفنى القطرة في البحر. يقول العطّار: «إذا غاص الدنس في البحر الكلّي يبقى في صفات نفسه، وإذا غاص فيه الطاهر يمي فيه، فحركته حركة البحر».

هي رحلة الإنسان في هذه الحياة، باحثاً عن الحق ساعياً بدأب وإخلاص نحو العِزّة الإلّهية، على الرغم من الصعوبات الجمّة، وما يُواجه في طريقه من مصائب ونوائب وأحداث. هو هاجس الإنسان منذ القدم، فكلكامش السومري في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد يمضي سائلاً عن سرّ الوجود، وعن كيفية الوصول إلى الخلود، ويستعين بمرشد اسمه أوتانا بشتـ

الناحي من الطوفان، بيد أنه يخفق في ذلك ويعود خائباً إلى مدينته أرُك. وغيرها من الأساطير القديمة والأعمال الأدبية المختلفة التي كانت تسعى نحو الحقيقة ونحو الله. نذكر منها الأوديسة لهوميروس بين (١٠٠٠ ـ ٨٠٠) ق.م، والضفادع لأرسطو فانيس ٤٠٥ ق.م، وأرداويراف نامه الفارسيّة التي ظهرت بين أواخر القرن الرابع وأواسط القرن السابع بعد الميلاد. ونذكر أيضاً قصة المعراج النبوي، ومعراج بايزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، وكتاب (سير العباد إلى المعاد) للسنائي الغزنوي المتوفي سنة ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م. ومعراج أبي الحسن الخرقاني المتوفي سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي المتوفي سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م ورسالة الطير للغزالي والتي تعتبر المرجع الرئيسي لكتاب منطق الطير للعطّار، وأيضاً مصباح الأرواح لأوحد الدين الكرماني ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م. وهفت وادي لبهاء الله المتوفي سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢. ونذكر أيضاً الكوميديا الإلّهية لدانتي المتوفي سنة ١٣٢١م. ورحلة الحج لجون بنيان المتوفي سنة ١٦٨٨.

وفي عصرنا نذكر (جاويد نامه) لإقبال الباكستاني اللاهوري المتوفي سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م. هذا عدا عن رسالة الطير لإبن سينا وباب البوم والغربان في كتاب كليلة ودمنة،

ورسائل إخوان الصفا. وغيرها من المؤلفات التي بحثت في عملية السعي نحو الحق، ومراحلها ومقاماتها. إنه هاجس الإنسان منذ بدء الوعي ينزع نحو المصدر الأول، نحو الخالق، بشغف ولذّة، وبصبر وتوبة، وورع، وزهد، وفقر، وتوكُّل ورضا، وبأحوال من المراقبة، والقرب، والمحبّة، والخوف والرجاء، والشّوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين. والطير التي ترمز إلى النفس البشرية، أو الروح، كانت منذ القدم تخفق بأجنحتها، فإذا هي طيور خضر ترفل في الجنّة بأرواح الشهداء، ولما أعتمد السيد المسيح من يوحنّا، «وصعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه...» متى ٣/١٦.

ولقد جعلوا للملائكة أجنحة، والروح هي الحمامة التي هبطت مع الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا القائل:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ورقــاء ذات تعــزُّز وتمنّــع

أمّا عند شاعرنا العطّار فمراحل السلوك أي المقامات يرمز إليها بالأودية، والسيمُرغ يمثّل الذات العليا، والطيور ترمز إلى النفوس البشرية. وكلّ واحد يمثّل توجّهاً معيناً، وسلوكاً خاصاً، وصفة مميّزة.

فالهدهد يمثل الدليل والمرشد الهادي الكامل والعارف،

أمّا البلبل فيرمز إلى العاشق الولهان الذي يهوى الجمال. والببغاء ترمز إلى الذين يحبُّون الخلود ويؤمنون بالدنيا الباقية. والطاووس يرمز إلى الناس الذين يعبدون الله طمعاً في الجنّة وخوفاً من النّار، فيحجبهم هذا النعيم عن مشاهدة الحق تعالى. والبطُّ يرمز إلى الذين يصرفون الأيّام في الإستحمام من أجل الطهارة، وقد ساورتهم الأوهام والوساوس ظناً منهم بأن غسل البدن بدقّة يطّهرهم جسداً وروحاً. أمّا القبج فيرمز إلى محبي الجواهر والذهب واللآلىء. ويمثّل طير السعد (الهماي) الهائمين بالسلطة والمفتونين بالنفوذ والقدرة. ومالك الحزين بالطبع يرمز إلى أهل الحزن. أمّا البوم فهو رمز الذين يشدون العزلة، أو الذين يبحثون عن الكنز في خرائب اعتزالهم. وتمثل الصعوة الناس الضعفاء الذين يهابون السفر ومشقّاته. أمّا الباز فيرمز إلى الذين يبغون التقرّب من الملوك والسلاطين.

وهكذا تجتمع الطيور تحت إمرة الهدهد المرتدي حلّة مميّزة، والتاج على رأسه، هو تاج الحقيقة. أتى الهدهد العارف بالشرّ والخير، وقال مخاطباً الطيور:

أيتها الطيور! إني بلا أيّ ريب، بريد الحضرة، ورسول الغيب، لقد أتيت عارفاً بكلّ حضرة، اتيتُ لفطنتي وعلمي، فأنا صاحب أسرار . . . أيتها الطيور! لنا ملك خلف جبل قاف، إسمه سيمُرغ، هو سلطان الطيور، وهو قريب منّا، بينما نحن

إنـي أختـال زهـواً بـأنـاقـتـي   وأجرّ الـذيـل تيهـاً بـالأمـالـي
كيـف أدنـو مـن سيُمـرغ لمسحـة   وهـو للحـق طريـق في الحيـاة

بعيدون عنه كثيراً. بيننا وبينه أكثر من مائة ألف حجاب أمام الباب من النّور والظلمة أيضاً. وليس لدى أيّ شخص في العالمين شجاعة للمثول أمام عرشه. فالطريق طويل وشاق، هناك مئات الآلاف من الأسرار مثل الكرات، هنالك النواح والأنين، والضوضاء، والضجيج. ما أكثر الأراضي، وما أكثر البحار في الطريق نحو السيمُرغ، صاحب الشأن العجيب، هذا الذي مرَّ على الصين في منتصف الليل، مزهواً مختالاً، فسقطت منه ريشة في وسط الصين، فأصبح كل بلد مملوءاً صخباً وهياجاً.

وما أن سمعت الطيور كلام الهدهد حتى انهالوا عليه بالأعذار، وابتدره البلبل بقوله:

لقد خُتمت بي أسرار العشق

فأنا لا أفتأ أغرّد بالعشق طول الليل.

إني مستغرق في عشق الورد حتى أصبحت

فانٍ فناءً مطلقاً عن وجودي.

فلا طاقة لبلبل على السير نحو السيمُرغ

يكفيني عشق الوردة.

وأجابه الهدهد: مهما يكن الورد صاحب جمال كثير، فهو يزول في أسبوع واحد...

إنّني للورد عاشقْ　　أصرف الأيام غارقْ

في فناء القلبِ خافقْ　　وأغنّي لحبيبي

وتكلّمت الببغاء وأردفت:

إني لا أستطيع تحمّل المشقّة نحو السيمُرغ.

تكفيني جرعة ماء من ينبوع الخضر (ماء الخضر هو ماء الحياة)

فأجابها الهدهد:

يا من ليس لها من الحظّ علامة

ان لم تضحّي بالروح فما أنتِ كرجل مقدام

ماذا ستفعلين بالروح؟ إبذليها للحبيب!

ضحّي بالروح كالرجال في سبيل الحبيب

وكذا الطاووس، يقدّم هو الآخر عذره، مشككاً في مدى اهتمام السيمُرغ به والتفاته إليه، مكتفياً بأن تكون جنّة الفردوس العالية مكانه، وليس له في الدنيا عمل آخر حتى تفسح الجنّةُ له الطريق مرّة أخرى. ويجيب الهدهد:

إنّ حضرة الحق بحر عظيم..

وإنّ جنات النعيم قطرة صغيرة.

والبطّ يعتذر، معللاً عدم رغبته في قطع طريق الوادي، لأنه أزهد الطيور، وأطهرها رأياً ولباساً ومكاناً، وهو لا يستطيع الطيران إلى السيمُرغ. ويجيبه الهدهد قائلاً:

نحن أهل الطهر أصحابُ سمات

نحو ماء الروض نسعى في الحياة

٢

كيف للسيمُرغِ نعدو باللهاث

سوف نبقى في غدير الأمسيات

يا من قد سعد بماء

لقد صار الماء حول روحك كالنّار.

وتحايل القبج معتذراً، ومتهيباً الوصول إلى السيمُرغ بقلب قوي، وهو الذي يضع يده على رأسه ويغمس قدميه في الطين، معللاً بأن جواهره يجب أن تظهر للعيان.

فأجابه الهدهد قائلاً:

ما أصل الجواهر؟ إنها احجار تلوّن

لقد قسى قلبك لعشقك الحجر...

وتُقدِّم باقي الطيور أعذارها والهدهد يجيب، مبدياً آراءه وبراهينه وحججه ونصائحه، كأن يقول للهماي الساعي نحو نيل رضا الملوك:

ليتك لا تمنح الملوك المجد والسلطان

وتحرّر نفسك من العظمة...

ويتقدّم الباز مختالاً يعتذر قائلاً:

تكفيني زقّة من يد الملك...

ويكفيني هذا القدر والمرتبة في الدنيا..

وأنـــا أعفــو لـــرزق مـــن مليـــك
ذاك يكفـي البـاز قـدراً يـا رفيقـي

كيـف أسعى نحـو سيمُرغ عجيـب
انـه المُلـك فيـا نفسـي استفيقـي!!

وجواب الهدهد:

لذلك يُحمل الرمح ذو الرأسين[1] المرصّع بالجواهر أمام الملك

فيا من اقترب من الملوك، إبتعد عنهم...

ويأتي دور مالك الحزين، فيتقدّم مكسور القلب بأعذاره ويقول:

أملأُ القلب دماً، أملأ بالماء،

وإذا استولى عليّ الحزن فلا أتأثر، وماذا أصنع..

فأنا لست من أهل البحر، فوا عجبا

كيف أموت على ساحل البحر عطشاناً يابس الشفة...

لا أريد سوى غمّ البحر في هذا الزمان...

ولا قدرة لي بالسيمُرغ، فالأمان!..

ويجيبه الهدهد بأنه إذا لم يجد مُنية القلب، فلن يجد أيضاً منه، راحة القلب.

---

(١) الرمح ذو الرأسين: في التقاليد الإيرانية القديمة، أنه كان إذا خرج الملك وطاف في المدينة يتقدمه رجل يحمل رمحاً ذا رأسين ويصيح بالناس. (دور باش، كور ماش) أي: ابتعدوا واغمضوا عيونكم، فيجعل الناس ظهورهم إلى الطريق ووجوههم إلى الجدار فلا يبصرون الملك رهبة ومهابة، فسمي هذا الرمح بـ(دور باش).

حُزن بحر الدنيا يكفي في الزمانِ
كيـف أعـدو للـيمُـرغ والأمـانِ

إنـي عطشـان فـي بحـرٍ ومـاءٍ
أمـلأ القلـب دمـاً فـي الشـاطئيـنِ

وعذر البوم يتمثل بأن عشق السيمُرغ ما هو سوى خرافة، وليس هذا شأن الشجعان. فينبغي عليه أن يعشق الكنز والخراب. ويقول له الهدهد: كلُّ قلب يعتريه الخلل، من عشق الذهب، تتبدّل صورته يوم القيامة...

وتأتي الصعوة بعذرها والحيرة تلفُّها، ولا حول لها ولا قوة، ولا قلب، ولا قوت. فكيف يمكنها الوصول إلى السيمُرغ وهي على هذه الحال.

ويجيبها الهدهد:

إن لم تكن لديكِ العين التي تستطيع أن ترى السيمُرغ

فليس لكِ القلب المنوّر الشبيه بالمرآة.

وعندما سألت الطيور الهدهد عن كيفية الوصول، وعن الطريق، أجابهم:

إن من أصبح عاشقاً، فلن يفكّر بالروح، وإذا صار قلبك عدواً للروح، فضحِّ بروحك لأن الطريق سينتهي بك...

فالعشق يجب أن يُمزَّغ بالألم وبدم القلب، وبقصَّةٍ ومشكلة...

ينبغي أن يواكب العشق ألم محرق للحجاب، ممزّق لحجاب الروح حيناً، وخائط لحجابها حيناً، وكلُّ من أصبحت

له قدم راسخة في العشق، تخلّى عن الكفر، وعن الإسلام أيضاً. . .

إن العشق يفتح لك الباب نحو الفقر،

والفقر يدلّك على الطريق نحو الكفر. .

فإذا لم يبق لك هذا الكفر وهذا الايمان،

ضاع جسمك هذا، ولم تبق هذه الروح.

وبعد ذلك تصير رجلاً لهذا العمل، ويحق للرجل مثل هذه الأسرار. . .

حينما سمعت الطيور هذا الكلام، تخلّت عن أرواحها في ذلك الزمان. ورموا بالقرعة، فوقعت على الهدهد العاشق. وغسل الجميع الأيدي من الروح زاهدين، ذلك أنّ حملهم ثقيل، والطريق بعيدة. وتشاورت الطيور مع مرشدها في أمر مسيرتهم الصعبة. ورأوا بأن القلب إذا فرغ، عند ذاك يرضون بالطريق ويسلّمون أنفسهم، متوجهين نحو الحضرة بلا قلب ولا جسم. فباب التوبة مفتوح ولن يغلق في وجه المريد، ولو كان كل إنسان طاهراً منذ بدايته لما صحّت بعثة الأنبياء، فالدمع هو دمع أسرار القلب، وما الأكل حتى الشبع سوى صدأ القلب. . .

وقالوا أيضاً: إنّ الذهب الذي يشغل الإنسان عن الله، ما

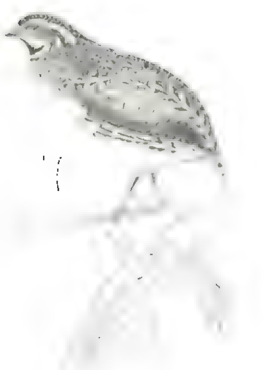

(قَبجٌ) إنّي عشيق الجوهرة
هي في دنياي كنز القنطرة
وأنا دوماً أناجيها هوىً
كيف أسعى ليمُرغ المغفرة

هو سوى صنم، فألقِ به في التراب، وانفق ما لديك في الجهات الأربع، واترك كلّ ما عندك، حتّى الروح، فاتركها، فـأنـت لا تعـرف أن عمـرك مهمـا يكـن كثيـراً أو قليـلاً يـدوم لحظتين، فلما الغم؟ . . . أفلا تدرك أن كلَّ من ولد مات، وذهب في التراب، وان كلَّ ما كان لديه تحمله الرياح؟ . . لقد ربّوك من أجل وجودك، وجاءوا بك من أجل موتك فالدنيا تمضي غير آبهةٍ، فامضِ أنت أيضاً، أتركها ولا تنظر إليها.
وأردفوا:

لا تطمع بالحضرة وأنت تمتلك حتّى الخرقة الممزّقة، أحرق كلَّ ما عندك، وإن كان رأس شعرة، فإن تحرق كلَّ شيء بآهةٍ ناريّة،

فاجمع رماده، واجلس فيه. . . .
فإن فعلت هكذا تحرّرت من الكلّ،
وإلاّ فاغتمّ من الكلّ ما دمت كائناً،
وما دمت موجوداً، فارض بمتاعب الروح،
وسلّم رقبتك لمائة صفعة في كلّ زمان،
إحتمل احتراق الروح وألم القلب كثيراً،
لأنَّ هذا لا يُبديه أحد هناك.

وبدأوا يهبطون الأودية، فإذا صاروا فيها فُنوا جميعاً،

وعدها من يُرجع إليك الخبر ممن لا خبر لهم. وإذ هبطوا بوادي الطلب، استقبلتهم المتاعب الكثيرة جداً. هناك لا يبقى غريق البحر يابس الشفتين يطلب سرَّ الحبيب من الروح، فإذا انفتح بابه، فما الكفر وما الدين، ليس هناك باب هذا أو باب ذاك، ويتجرّد المريد من متاع الدنيا كلّه.

ثمّ يبلغون وادي العشق، حيث يكون العاشق مثل النار، بلا صبر، محرقاً، متمرداً، فالعشق هنا نار، والعقل دخان، وساعة يظهر العشق يختفي العقل. ولمّا كان العشق وسيلة المعرفة، نراهم يصلون إلى وادي المعرفة الذي لا أوّل له ولا آخر، هناك يحلو النهوض وتطلب الأسرار، حيث يمكن التنبّه بجمال الحبيب، شمس ساطعة، يرى كل واحد من الأسرار بحسب قدرته.

ويهبطون إلى وادي الاستغناء حيث لا إدّعاء ولا معنى، فالبحار السبعة هناك غدير واحد، والكواكب السبعة شرارة واحدة، والنيران السبع كالثلج. وإذا تساقطت الأفلاك والكواكب قطعاً فهي كأوراق الشجر المتساقطة، والنملة هناك أقوى من ألف فيل، أعظم الأشياء حقير أمام هذا الجلال. ويبلغون وادي التوحيد حيث التفريد والتجريد، فلا ضير إن رأيت العدد كثيراً أو صغيراً، هو واحد، وهو وراء العدّ والحدّ. حيث لا يُدرك الأزل ولا الأبد.

إنمـا عشـق السيمُـرغ هـذيـان
لا أبـالـي بخـرافـاتِ الـزَّمـانْ

فـأنـا أسعـى بعـزمٍ فـي الخـراب
نحـو كنـز الأرض أو مـالِ القيـانْ

الوصول إلى وادي الحيرة يُجلب لك ألماً وحسرة وتردّد:

مسلماً

إني عاشق، غير أني لا أعرف من ذا أعشق، لست [redacted] ولا كافراً، فمن أكون يا ترى؟ ولا علم لي بعشقي. ويضرب العطّار مثلاً عن أميرة جميلة عشقت غلاماً لديها، وقد أنفت أن تسرّ إليه بحبّها. فأقبلت جواريها إليه وسقونه خمراً حتى سكر، وأتوا به إليها ففتح الغلام عينيه على فتاة جميلة في قصر مهيب حيث العطر والجواري والألحان الساحرة، وفتاة رائعة الجمال، فعشقها، ولما غلبه النوم حُمل إلى بيته. وإذ استيقظ من غفوته تذكر ما رأى، ولكنه لم يعلم كيف ومتى.. أكان حلماً ذاك أم يقظة، وغمرته حيرة عجيبة.

وتصل الطيور بعد هذا العناء والشدّة والإضمحلال والتفاني إلى وادي الفقر والفناء، ووادي النسيان، والعرج والخرس والصّمم، واللاّوعي والذهول، ونسمعه يردّد: كلٌّ من قد صار فانياً في بحر الكلّ

قد صار فانياً مستريحاً دائماً..

إن القلب في هذا البحر المملوء راحةٌ،

لا يجد سوى الفناء...

ويضرب العطّار مثلاً لفناء الإنسان في الله فيقول: إن جماعة من الفراش تحلّقت حول بعضها تسأل عن الشمعة،

فأرسلت واحدة منها لتتحرّى أمر هذه الشمعة وتتفحصّها وتختبرها وتعلمهم بمكانها، وطارت حتى أبصرت قصراً فيه شمع مضيء، وعادت إلى صاحباتها تصف لهن الشمعة. فقال لها كبيرهن، أنتِ لم تعرفي من الشمعة شيئاً، فانطلقت أخرى إلى المكان عينه واقتربت من نارها، فلم تتحمّل لمس النار، فرجعت خائبة تخبر صاحباتها عن الشمعة، ولكنها أنبئتهن ببعض أسرارها. وهنا قال كبيرهن: يا صاحبتي ليس هذا وصفاً دقيقاً للشمعة. فانطلقت ثالثة في فرح وسكر حتى ألقت بنفسها في اللهب، فاشتعلت وأضاءت كاللهب. ولما عادت إلى أصحابها، أبصرها كبيرهن، فقال: قد عُرفت هذه الشمعة الآن، إنّما يُدرَك الحبيب بالفناء فيه.

كان يسلك الطريق إلى الحضرة، عالم من الطيور، ولم يصل إلى هناك منهم أكثر من ثلاثين طائراً وصلوا متألمين، سكارى، منهوكي القوى، كسيري القلوب، فماذا وجدوا هناك؟ رأوا حضرة بلا وصف ولا صفة، أعلى من إدراك العقل والمعرفة.

لقد أبصروا برق الإستغناء يومض فيحرق مئات العوالم في لمحة، رأوا آلاف الشموس والكواكب حائرة كالذرّات. فقال عدد من الطيور للآخرين: وا أسفاه على ما تحمّلنا من مشاق السفر، إنّ مائة فلك هنا كذرّة من التراب، فما وجودنا وما عدمنا في هذه الحضرة.

ومكثوا في حسرة ويأسٍ وحزن حتى خرج حاجب العزّة وقال لهم: يا أيّها الحيارى المنهكين من أين أتيتم؟ ولماذا أقبلتم؟ وما اسمكم؟ وماذا سمعتم؟ ومن أخبركم أن قبضة من الريش والعظم مثلكم تقدر على شيء؟ . . وأجابته الطيور:

جئنا هنا ليكون السيمُرغ ملكنا. وقد طال علينا الطريق، كنّا آلافاً فما بقي منّا إلاّ ثلاثون. جئنا من مكان بعيد، راجين أن يؤذن لنا في هذه الحضرة، جئنا لعل الملك يرضى بأعمالنا فتنالنا منه نظرة.

وقال الحاجب: إرجعوا فإن مئات العوالم لا تزن شعرة أمام هذا الباب. وأجابت الطيور:

إن هواننا على هذا الباب عِزّ، وسنبقى هنا نحترق كالفراش في النار! ولن نيأس من رحمة الملك.

عندها خرج الحاجب وفتح لهم الباب، وتقدمهم يرفع مئات من الحجب كلّ لمحة، فانبعث النُّور في الأرجاء، وبدا عالم التجلّي، وقد أُجلست الطيور على أرائك القرب. ثم أُعطي كلُّ طائر ورقة، فقرأ فيها ما قدّم من أعمال في حياته، فسقط مغشياً عليه من الخجل، ثمّ مُحيت الأعمال وأُلقيت في عالم النسيان، فلم تعد الطيور تذكر شيئاً.

بعد ذلك أضاءت شمس القرب محرقة كل روح،

فأبصروا السيمُرغ، وما أعجب ما شاهدوا، كانوا إذا نظروا إلى السيمُرغ، رأوا سي مُرغ (ثلاثين طائراً)، وإذا نظروا إلى سي مُرغ (ثلاثين طائراً) رأوا السيمُرغ. وإذا نظروا إلى أنفسهم والسيمُرغ معاً أبصروا السيمُرغ وحده. فأخذتهم الحيرة والعجب، وسألوا عن السبب، فقيل لهم: إن هذه الحضرة مرآة، فمن جاءها لا يرى إلاّ نفسه. جئتم سي مُرغ (ثلاثين طائراً) فرأيتم السيمُرغ كيف تدركون الأبصار وكيف تنال الثريا عين النملة؟.. فالأمر ليس كما رأيتم وكما علمتم، ولا كما قلتم أو سمعتم،

فأفنوا فينا في صدر العزّ والدلال،

حتى تحدونا ثانية في أنفسكم..

ففنوا فيه أخيراً إلى الأبد،

وقد فني الظلُّ في الشمس، والسلام

وقال العطّار أخيراً:

ختم عليك منطق الطير ومقامات الطيور،

كما ختم على الشمس النّور..

وإذ مضت مئات الآلاف من القرون، تلك القرون التي لا زمان لها، ثمّ أعيدت الطيور الفانية إلى أنفسها، فلما عادت إلى أنفسها بغير أنفسها، رجعت إلى البقاء بعد هذا الفناء.

يمثل هذا الرسم (منطق الطير)
بريشة الفنان الإيراني محمد صندوقي

قصة الشيخ صنعان

عندما كان العطّار يتحدّث بلسان الهدهد، ويحضّ الطيور على السير نحو السيمُرغ، ويذلّل أمامهم العقبات ويلين قلوبهم، كلّمهم بالعشق الصادق، ودعاهم إليه، لأنه بوساطته يضحّي الإنسان العاشق بالروح في سبيل المعشوق، ويقتحم كلّ الصعاب لكي يصل إلى الحبيب. وهنا يستطرد شاعرنا ليروي حكاية الشيخ صنعان الذي أخرجه العشق من دينه زمناً حتى أدركه الله بشفاعة رسوله، فأعاده إلى صوابه. فالعشق هو قمة التصّوف وخلاصة المعرفة والعلوم، وهو منتهى الإقدام والغاية، يقول العطّار في (بلبل نامه).

گر علم همه عالَم بخواني چوبي عِشقي، أزان حَرفي نَداني

أي ما معناه:

فـإن تقـرأ علـوم النـاس ألفـا

بـلا عشـق فمـا حصّلـت حـرفـا

ويقـول فـي مقـدمـة (جـوهـر الـذّات): «العشـق يعـرف صفاتك لأنه من الجوهر. . . إنه يكشف الحجاب لأنه رآك في وحدتك فعرفك».

ويقول أيضاً: «إذا اجتمع العقل والدين والعشق أدرك الذوق كلَّ الأسرار التي يبتغيها الطالب».

حكاية الشيخ صنعان مثيرة، هي قصّة شيخ كان فريد زمانه، كاملاً في كلِّ شيء، وفوق ما يتصوّره عقل. مقامه الحرم الشريف في مكّة المكرّمة، إليه يأوي وفيه يستكين منذ خمسين عاماً. وحوله المريدون وقد بلغوا أربع مائة. هم من أصحاب الإيمان القوي، يواظبون على الرياضة الروحيّة ليلا ونهارا. لا تكلّ لهم عزيمة، ولا يتسرَّب إلى قلوبهم اليأس والشك والخوار! وقد أدّى الشيخ صنعان في حياته خمسين حجّة تقريباً. والعمرة كان يؤدّيها بلا انقطاع وباستمرار على مدى الأيام والسنين الطويلة. لم يكن ليتخلّف يوماً عن صلاة ويداوم على الصوم بلا حدود. ولم يترك في حياته هذه أيّة سنّة من السنن. يلازم ربّه عاشقاً بكلّ جوارحه ومن أعماقه، والأئمة الذين أتوا في العشق قبله، أتوا بلا وعي من النفس. . بينما كان

شيخنا عميقاً في تفكيره، دقيقاً في رأيه، قوياً في الكرامات والمقامات. يبعث الأمل والصحّة والفرح في قلب من يأتيه شاكياً مريضاً باكياً.

كان يغطّ في إحدى الليالي في نومه، عندما تراءى له في حلم أنه رحل إلى بلاد الشام، ورأى نفسه يسجد لصنم هناك. إستيقظ على هذا الحلم المريع صارخاً: وا ألماه، وا أسفاه، لقد سقط يوسف في الجبّ بحسب مشيئة الله، ومصدّقاً لقوله تعالى: ﴿فلمّا ذهبوا به، وأجمعوا أن يجعلوهُ في غيابتِ الجُبِّ وأوحينا إليه لتُنبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ يوسف ١٥. فساوره غمّ شديد، لم يعرف كيف ينجو منه، وإن هو آمن بذلك فقد تخلّى عن الرّوح، فالعقبات كثيرة وهي تواجه النّاس أجمعين، فإن استطاع الخلاص اتّضح له الطريق نحو الحضرة الإلّهية. أمّا إذا بقي خلف تلك العقبة، طالت الطريق عليه. وإذا بالشيخ المعلّم يفاجيء مريديه بقراره السفر إلى بلاد الشام حالاً لكي يعلم كنه هذه الرؤيا. ورافقه في هذه الرحلة المريدون الأربع مائة جميعهم.

وصلوا إلى أرض الشّام، وراحوا يطوفون في هذه الأنحاء كلّها. وتقودهم الأقدار إلى جانب شرفة عالية. فأبصر الشيخ فتاة تطلُّ من على هذه الشرفة:

فتاة مسيحيّة روحانية الصفة،

لها في طريق (روح الله)[1] مائة معرفة

وكانت في سماء الحسن، في برج الجمال
شمساً، ولكن بلا زوال.

وكانت الشمس، حسداً، وغيرة من صورة وجهها
أسرع إلى حبها من العاشقين[2]..

لها حاجبان كالهلال التائه في ليل العاشقين، وعينان ساحرتان، إن رنت إلى العشاق فتنتهم، وتراها تصرع الهائمين بحبّها من غمزة حاجبيها، هما قوسان يطوّقان وجه القمر المشتعل ناراً، يبعثان سهمهما إلى أرواح العشّاق. شفتاها تحترقان عطشاً، والعينان الثملتان تطعمان الهائم بحبها ألف مرّة. وقد تساقط الكثيرون في جُبِّ غرامها، كما أودع يوسف في البئر. ونظرت هذه الحسناء إلى الشيخ فانعقد لسانه، وأغمي عليه، وهوى. وإذ أصبح المكان ناراً، سقط في النار، وفني كلّ ما كان عنده تماماً. وامتلأ قلبه دخاناً من نار العشق الجنوني. وتغلّب العشق على روحه وقلبه...

حتى يئس من القلب، وسئم من الروح...
وأنّى للعاشق الولهان أن يطيع؟..

(١) روح الله، يقصد السيد المسيح
(٢) منطق الطير، أحمد ناجي القيسي

وكيف يحتمل ألم العلاج، أو حرقته؟. .

وتسمّر في مكانه، شاخصاً نحو الشرفة، وفمه قد تجمّد فاغراً من شدّة الدهشة. . ولقد حار المريدون في أمره، ونصحوه، فلم تنفع معه النصيحة.

وكيف تنفذ الطاعة إلى قلب العاشق الولهان. وأخذ الهيام يتزايد يوماً بعد يوم، ولم يعد قادراً على النوم أو الراحة لحظة واحدة. . .

وتراه يرتجف، وينوح، وهو الذي أمضى لياليه في الرياضة الروحيّة. لم يشهد من قبل حالةً انتابته كتلك. إنّه يشتعل هياماً، ويحترق عشقاً كالشمعة في الليالي الكالحة. أتراه وُجد من أجل هذه التجربة؟ أمن أجل هذه الأيّام المليئة بالحزن والغم كان وجوده؟ لقد ذهب كلُّ شيء لديه، لم يبق عنده عقل أو صبر. وصارت تلك الحسناء، الرائعة الجمال كلَّ شيء لديه، وغاب عمّا حوله من مريدين وأصحاب وناس. . .

لقد صارت هذه الفتاة صلاته، وناموسه، وحاله، ومحرابه، وإيمانه، ونشوته، وأمله، وجنّته. . . فلازم الشيخ الوقور الحيَّ حيث تقيم. . وتنبّهت الفتاة الجميلة أخيراً لما يجري أمامها، فنصحته بالإنصرف، معلّلة عدم قبولها لكونه مسلماً، وهي مسيحيّة، وكذلك فإن فهناك هوّة بينهما بالنسبة

إلى السن، هو طاعن وهي في عمر الورود. . .

وتضرَّع إليها أن توافق. وقد ألحَّ بقوة وعناد أن تقبل عبوديته، وحبَّه. . . وأخيراً رضيت ولكن بشروط عدّدتها: أن يسجد للصنم، ويحرق القرآن، ويشرب الخمر، ويغمض عينيه عن الإيمان فأجابها أنه يختار الخمر، ولا شأن له بالثلاثة الأخرى. أخذوه إلى الحانة فاحتسى الخمر، وظلَّ يشرب حتى سكر. حاول أن يعانقها، فقالت له لا أعانق من يخالف المعتقد، وهكذا تنصَّر. . . ورضي أخيراً أن يحرق القرآن، وعلم به النصارى، فأخذوه إلى الدير وشدّ الزنار. .

وطلب منها بعد كلّ هذا، الوصال. . . فأبت متذرّعة بأنه فقير، وصداقها غالٍ وكبير!! . .

طلبت منه أن يرعى الخنازير سنة كاملة، وذلك بدلاً عن صداقها. وافق على طلبها، ومضى يرعى قطعان الخنازير. . .

ولما يئس أصحابه من إقناعه، وإعادته إلى صوابه، تركوه ومضوا عائدين إلى الكعبة. نذكر انه كان للشيخ مريد، وكان غائباً عن مكّة يوم غادرها إلى بلاد الشام. وعندما عاد، سأل عن الشيخ فأخبره المريدون بما جرى له. فحزن كثيراً، ولامهم على تركهم إيّاه وحيداً في بلاد الروم هذه. وطلب إليهم أن يصلّوا ويستعينوا بالله، فهو القادر وحده على إرجاع

الشيخ إلى رشده، ودينه، وإسلامه. وسافروا جميعهم إلى بلاد الشام لتفقده، ولكي يكونوا على مقربة منه. وهناك اعتكفوا في مكان معيَّن. يواظبون على الصلاة، متضرّعين إلى الله أن ينقذ شيخهم من بلواه.

واستجاب الله سبحانه لهذا المريد المؤمن الصادق، بعد أربعين ليلة. فقد أغمي عليه، وأبصر في غفوته الرسول محمّد ﷺ يطلُّ عليه مبتسماً كأنه القمر. فوثب المريد من مكانه، وقال له. يا نبيَّ الله، أنت هادي الخلق، فأهدِ شيخنا الجليل الضّال، من أجل الله، يا رسول الله! فأجابه المصطفى: إذهبْ وتفقَّد شيخك فقد أطلقته من القيد. وهكذا حلَّت التوبة، وزال الإثم والغبار عن طريقه، واستعاد الشيخ صنعان وعيه، وتذكَّر حكمة أسرار القرآن والحديث. وتحرَّر من الجهل والمسكنة، واغتسل، ولبس الخرقة، وسار مع مريده إلى مكّة...

في هذه الأثناء أبصرت الفتاة في المنام أن الشمس قد هبطت إلى جانبها وخاطبتها قائلة: سيري إثر شيخك واتخذي دينه، واسلكي طريقه. ولمّا استيقظت جرت مسرعة في إثر الشيخ .. وألهم الله الشيخ أن الفتاة قد رضيت بالإسلام ديناً، وهي في طريقها إليه... وطُلب إليه أن يعود إليها ليكون مؤانساً لها ورفيقاً في هذه المرحلة، فقفل مسرعاً نحوها.

وخشي المريدون أن يكون الشيخ قد عاد إلى سيرته المعهودة معها.. ولكنه أخبرهم بما رأى، فساروا معه إلى حيث كانت الفتاة.. فإذا بها قد سقطت على الأرض من الإعياء والتعب. وحالما أبصرت الشيخ أخذتها سنة من النوم... فنثر الشيخ على وجهها دموع عينيه... واستفاقت لتنظر إلى الشيخ والدموع تنهمر من مقلتيها مثل مطر الربيع... فألقت بنفسها على يديه وقدميه. فقال لها: إن روحي قد احترقت من خجلي منكِ، ولا استطيع بعد الآن أن احترق أكثر من هذا خلف الحجاب... فأجابته:

ألقِ عليَّ بالتوبة حتى أصبح عارفة...

واعرض عليَّ الإسلام حتى اهتدي..

فعرض عليها الإسلام، وصار هناك هياج كبير، وصخب من قبل الأصحاب الموجودين. وصارت تلك المعشوقة من أهل العيان... وأصبح الدمع بينهم مطراً يموج.. ثمَّ قالت له: لقد نفذ صبري، ولم أعد أقوى على الفراق،... إني أبارح هذا الجسد البشري المفعم بالصداع، فأعف عني ولا تخاصمني... الوداع يا شيخ العالم الوداع.. ونثرت الفتاة روحها على الحبيب، واختفت خلف السحاب منطلقة كالقطرة نحو بحر الحقيقة...

العشق هو القوّة الخفيّة الجبّارة التي تحضّ الإنسان، وتدفع به نحو الطلب والإقدام والجد. هو في أعماق المريد والطالب. يقول العطّار في (مختار نامه): ذهنا وراء عالم العقل والفهم، العقل لا يجدي عليك، إنما يأتي إليك بما يأتي به غربال من بئر. إنّما يحاول العقل أن يُدرك في هذا العالم، ولكن هذا العقل الذي يفقد نفسه بجرعة من الخمر لا يقوى على المعرفة الإلّهية. العقل أجبن من أن يرفع الحجاب ويسير قدماً إلى الحبيب. إنه أول الخلق ولكنه لم ير وجه الحبيب قطّ، إنه لا يعرف صورة نفسه، وإن عرف آلافاً من الأسرار، ولا علم له بالجوهر الذي لا يُحدّ لأنه ضلّ عن نفسه»[1].

هكذا فبالعشق، وفناء النفس، والإتصال بالله، تُدرك الحقيقة. وكلّ هذه المقامات والأحوال تتلاءم والشريعة إذ هي سرٌ من أسرارها الخفيّة. ومستمدّة من فلك القرآن.

والمحبّة من الأحوال التي تلازم المريد، بل أهمها وقد رُوي عن الرسول ﷺ انه كان يدعو ويقول: «اللهمّ اجعل حبّك أحبَّ إليَّ من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد». والحبّ في الأحوال كالتوبة في المقامات، كما قال السهروردي... «ومن صحت محبته تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو». وقد قال أبو حسين الوراق:

(١) مختار نامه، الكليات ص٩٥٤، يراجع عزّام ص٧١.

«المحبّة في القلب نار تحرق كلّ دنس».

المحبّة الصوفية هي الإتحاد والذوبان ما بين المحب والحبيب، والشوق الذي لا تنطفىء شعلته، ولا تخف حرارته، ولا تروي القلب مياهه، ونسمع صوت المريد العاشق يقول:

يا نسيم الريح قولي للرَّشا ... لم يزدني الوردُ إلاّ عطشا
لي حبيبٌ حبُّه وسْطَ الحشا ... إنْ يشَا يمشي على خدّي مشى
روحُه روحي وروحي روحُه ... إن يشَا شِئتُ وإن شئتُ يشا

والمحبّة تؤدي إلى اللقاء والمؤانسة، في مجالس القُرب وتكسب المحب صفات المحبوب، كما قال ابن عربي:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

العطار والإسلام

التصـوُّف هـو امتـداد لـروح الإسـلام، منـه استقـى المتصـوّفون أفكـارهـم وآراءهـم في الحيـاة والـوجـود. وُجـد التصوف قبل الإسلام بأشكال مختلفة، وتوجُّهات متنوِّعة معينة. بيد أنّها في جوهرها، هي امتداد للفكر البشري في العالم قاطبة. وأهل الصوفيّة في هذا الشرق، ومنهم العطّار عادوا ـ بعد أن اتَّضح مذهبهم، واستوى ـ إلى روح الإسلام يفتشون في آيات القرآن الكريم عمّا يؤاتي طرقهم وأفكارهم الخاصة، فأخذوا بوساطة التأويل والاستنباط يستخرجون ما في الآيـات والأحـاديـث مـن آراء تتلاءم وعقـائـدهـم، وتتـوافـق وأفكـارهـم، كـذلـك فعـل اليهـود والمسيحيـون فـي التـوراة والإنجيل.

احتجَّ المتصوفون وأهل الكلام لرأيهم بآيات كريمة نذكر منها: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحكمات هن أمُّ الكتاب، وأُخَرُ متشابهاتٌ، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنةِ وابتغاءَ تأويله. وما يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم﴾ آل عمران/ ٧.

وكذلك أخذوا بالحديث الشريف: «حدِّثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله». ثمَّ أننا نرى المتصوفين ومنهم العطّار، يفسِّرون الآيات القرآنية لكي تتوافق وميولهم المعروفة التي تتجاوز الصور إلى الحقائق، وتبتعد عن الاشكال والظواهر والمحسوسات، لتركن إلى الأمور المعنوية، فاستقوا من القرآن إشارات مهمَّة جيّروها لصالحهم الفكري، وإرضاء لما يعتمل في نفوسهم من إيمان ونزعات روحانية عرفانية شفّافة. من هذه الآيات نذكر: ﴿ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تولُّوا فثمَّ وجهُ الله﴾ البقرة/ ١١٥.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ ونَعْلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه ونحن أقربُ إليهِ منْ حبل الوريد﴾ ق/ ١٦.

وهناك الآية الكريمة التي تتحدَّث عن قرب الإنسان من ربّه: ﴿ألم ترَ أنَّ اللهَ يعلم ما في السمواتِ وما في الأرضِ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعُهم، ولا خمسةٍ إلا هو

سادسُهُمْ ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلاّ هو معهم أينما كانوا. . ﴾ المجادلة/ ٧.

وتتوافق هذه الآية وآية من الإنجيل تقول: «لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» متّى ١٨/ ٢٠. يقول السراج في كتاب اللُّمع، وفي باب المستنبطات: «إنّ اختلاف أهل الظاهر في الاستنباط يؤدي إلى الغلط، والإختلاف في علم الباطن لا يؤدي إلى ذلك لأنها فضائل ومحاسن ومكارم وأحوال وأخلاق ومقامات ودرجات». والعطّار الذي كان صوفياً، كان أيضاً مسلماً مؤمناً، يدعو إلى الإتفاق بين الشريعة والتصوُّف، ويطلب أن يُتّبع الشرع في كلّ الأمور. يقول إن من أسكرته الحقيقة يحيد عن الشرع أحياناً ولكن ينبغي أن يبقى الصوفي صاحياً: «لا تحد عن الشريعة لمحة لئلا تقول مقالة منصور (الحلاّج). لا تبقى في البحر واعمد إلى الساحل ولا تُسلم نفسك للسكر من جرعة أو جرعتين عليك بالصحو وإن شربت كلّ دنان الحانة»[1].

ويقول العطّار بلسان لقمان السرخسي في وادي التوحيد، من كتاب (منطق الطير)، ان لقمان هذا لما بلغه الكبر ناجى ربّه قائلاً: «ربِّ إن السيد يعتق عبده إذا كبر، وقد كبرت في طاعتك». فسمع لقمان منادياً يدعو إلى أنّ من يريد العتق

(١) جوهر الذات، ك، ص٦٨

يمّحي عقله وتكليفه معاً، فاترك هذين واقبل، قال لقمان: إلّهي إنما أطلبُك أنت، لا حاجة بي إلى العقل والتكليف. ويخرج لقمان من العقل والتكليف ويمضي في جنونه مردداً: الآن لا أدري من أنا. . .

يقول العطّار أنَّ الجنّة والنار في خلقة الإنسان، وإنّ الجنّة هنا ولا يدري أحد، ومن درى فقد ذهل، وإن الثواب والعقاب في الآخرة هما في القرب من الحبيب والبعد عنه، وإن اللوح المحفوظ هو القلب. وكغيره من أهل التصوُّف نظر العطّار إلى المذاهب والأديان، فوجدها مظاهر متنوِّعة لحقيقة واحدة هي تحرُّق النفس الإنسانية لمعرفة ربها، والسعي للإتصال به، يقول: «لا تنظر إلى غير الله. الكعبة والدير عندي سواء». وقال أيضاً: «رحمة الله تنال أهل الأديان كلّها. . .» ويحتجُّ لرأيه هذا بآيات من القرآن كقوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كلَّ شيء﴾ الأعراف/ ١٥٦.

وكذلك: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ البقرة/ ٦٢، وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شِرعةً ومِنْهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدة ولكن ليبلُوَكُم فيما آتاكم فاستبقوا الخيراتِ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكُم بما كنتم فيه تختلفون﴾ المائدة/ ٤٨.

هذه النفس الإنسانية التائهة في بحر هذا الوجود، تسعى دائبة للعودة إلى موطنها الأول إلى عالم الروح التي هبطت منه وكما يقول العطّار: «إن كلَّ شيء ينزع إلى البحر أو إلى النور الذي ظهر منه. وان العالم في حنين دائم إلى أصله، في شوق مستمر إلى الله..».

هذه النفس ما تزال في حيرة من أمرها تتذكر مرجعها الأول، فلقد فقدت صفاءها عندما سكنت إلى هذه الحياة الجسميّة، يقول العطّار: «أيّتها الروح! أيتها البلبل! بقيت في الأسر إذ سكنت إلى الشَّرَك».. ويقول أيضاً مخاطباً الروح: أيتها الروح! جئتِ من العالم الذي لا يحدّ، فريدة في جمالك، ولبثتِ في حجاب المادة فلا قرار لك حتى ترجعين ـ أيتها الروح! كيف أنتِ في هذا العالم الغريب؟ كيف أنتِ مسلوبة كلَّ عظمتك وجمالك؟.. الروح طائر فَارق العرش فإن لم يجد له دليلاً إلى وطنه ضلّ»[1].

وعلى الرغم من انتساب العطّار إلى المذهب السنّي الشافعي، نراه في كتابه (مظهر العجائب) يعلن تشيعه. وهو في جميع الأحوال يتخلّق بروح الإسلام، ويستمدُّ من القرآن ومن سيرة الرسول ﷺ والصحابة وأهل البيت عليهم السلام القبس الذي يهديه، وينير أمامه الطريق نحو الحق. فهو يرى ان خلق العالم

(١) عزام، ص٨٨.

كان بسبب الرسول الكريم ﷺ «وإن علماً واحداً من نوره الطاهر هو عالم، وكذلك فإنَّ علماً آخر، هو الذرية وآدم. . .»[1]. وقد استقى هذا من كلام نسب إلى الحسن ابن علي عليه السلام، الذي قال: سمعت جدي رسول الله يقول:

«خلقتُ من نور الله عزَّ وجل وخلق أهل بيتي من نوري».
ويردف العطّار في أبياته هذه التي استهلّ بها كتابه (منطق الطير) في نعت النبي ﷺ: إن الحق تعالى وبسبب كمال احترامه، قد ذكره في التوراة والإنجيل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريمَ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدِّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمد﴾الصف/٦. والعطّار يحيل كلامه إلى ما جاء في سفر التثنية من التوراة: «أُقيمُ لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك وألقي كلامي في فيه فيخاطبهم بجميع ما آمُرُهُ به» تثنية ١٨/١٨.

ويشير العطّار أيضاً إلى كلام السيد المسيح يخاطب تلاميذه قبيل تسليمه قائلاً: «وأنا اسأل الآب فيعطيكم معزياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد. روحَ الحق الذي العالم لا يستطيع أن يقبله لأنه لم يره ولم يعرفه، أمّا أنتم فتعرفونه لأنه مقيم عندكم ويكون فيكم» يوحنّا ١٤/١٦ ـ ١٧.

ويردف العطّار مخاطباً الرسول ﷺ: «إنك قبل

(١) العطّار، منطق الطير، ٢٦٥.

العالم، وإنك بعده أيضاً. . . فأنت السابق والآخر معاً. . .»[1].

ونذكر ما قاله في فضيلة الإمام علي عليه السلام في المصدر عينه:

السيد الحق، والإمام الصادق. .

جبل الحُلم، باب العلم، وقطب الدّين. .

ساقي الكوثر، الإمام الهادي،

إبن عمّ المصطفى، أسد الله[2].

وأخيراً

نعود إليك الآن بعد هاتيك السنين الطويلة، بعد سبعمائة وخمس وستّين سنة على غيابك، فيقام في بلدتك نيشابور مؤتمر عالمي للتعريف بأفكارك، وآثارك الإنسانية والأدبية، فأين أنت اليوم يا شيخ العارفين، وسط هذا البحر العظيم من الأفكار، والفلسفات، والآراء، والنزعات، والتوجهات الكثيرة المختلفة. وسط هذا العالم المغرق في الماديّة، والصراع، والتنازع، والتناقض اجتماعياً، ونفسياً، وروحياً، وبيئوياً، وسط هذا الاستكبار العالمي المشين، نتطلّع إليك أيها العطّار

(١) أحمد ناجي القيسي، منطق الطير، عدد ٣٦٥.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٤٤١.

الكبير.

نعم لقد عشنا معك سويعات قليلة، فتعلمنا منك أشياء كثيرة. تعلّمنا منك الحرية، فشاهدناك تهجر الجاه والمال في سبيل حريتك المطلقة، التي لا تعرف الحدود أو السدود، والتي كانت تقف حجر عثرة أمام انطلاقتك نحو المدى الأرحب الشامل والكامل، النقي الطاهر، نحو الحق نحو (السيمُرغ). وانت القائل: «إنَّ الدنيا ومن يرتزق فيها أشبه بذبابة داخل بيت العنكبوت».

لقد تخلّصت يا شيخنا الجليل من هذا الأتون الذي يصليك بناره كلَّ يوم، وانطلقت خارج هذه اللعبة الحمراء، ألم تقل: «وما نارك إلاَّ الدنيا فابتعد عنها، وافعل كما فعل الأبطال، وكن حذراً من هذه النار». لقد تحرّرت من العصبية المفرقعة، وانطلقت نحو الشمولية فحلّقت في أجواء عليّة شفّافة، فوق المذاهب المختلفة، والتيّارات الدينية المتنوعة، وكم نحن بحاجة ملحّة إليك في هذا الزمان بالذات، وعلى هذه الأرض التي تشهد عراكاً مميتاً بين أبناء الإنسان، الذين يعبدون الله الواحد الصمد.

نعم، لقد افلتت من هذا الأسر، واجتزت الأوديَة السبعة، وتحمّلت كل أنواع الشقاء والعذاب في سبيل حريتك... في سبيل فنائك وتلاشيك في اليمِّ العظيم، حيث

الخلود والبقاء. لقد تنقلّت ما بين أهل الصحو وأهل المحو، وعرفت الطريق إلى الحبيب بوساطة العشق الذي يخفي كلَّ أنانيّة، وكلَّ ذات، ويجعل السالك نحو المعشوق غير هيّاب، يقتحم كلَّ عقبة وذلك بتجرّده من نفسه، فيصبح الطريق الطويل الشاق أمامه سهلاً لا يحدّه قياس. وأنت القائل: «أعرف العشق، وامحُ نفسك تُصب بهذا المحو خلودك. لا ريب أن هذا العشق هو الدليل إلى الحبيب...»[1].

والعشق هو طريق المعرفة. والعالم في شوق دائم إلى المصدر، وإلى النبع الصافي، إلى الله، وأنت القائل أيضاً: إنّ العالم كلّه صادر عن الله، والله بحر لا يُحد، القطرة منه أعظم من ثمانية عشر ألف عالم. وكل قطرة تحنّ إلى التجلّي... بحر إن رأيته لمحة واحدة رأيت العالمين فيه كقطرتي ندى...

لقد علّمتنا يا عطّار نيشابور فعل الإيمان القوي، والمحبة الخالصة، والطريق المستقيم، والثبات والصلابة، والطاعة، والأخلاق، والحرية... في زمن بات الإنسان فيه أسير شهواته، وأطماعه، وحسده، وكراهيته، وأنانيته، وتعصبه، وتكالبه المرير على المادة. لقد علمتنا من أسرار الحياة وميض برق، ولمحات معرفة، فلعلّنا ندرك عدداً من قيمها فنغذي نفوسنا بإكسير من عطوراتك يا سيّد العارفين.

(١) ميلاج نامه، مختار نامه، الكليّات ٥٩٨/٩٦٩.

کمال الملک و عطّار

الفهرس

مقدمة ٥
إلى فريد الدين العطّار ١٣
التصوّف ١٥
إيران والتصوُّف ٢٧
فجر نيشابور ٣٥
عطّار من نيشابور ٣٩
العطّار والتصوف ٥٩
ماذا قالوا في العطّار ٦٣
منطق الطير ٦٩
قصة الشيخ صنعان ٩٩
العطّار والإسلام ١١١
وأخيراً ١١٧

دار الحق

بيــروت – لبنــان – ص . ب ٢٤٠/٢٥ تلفــاكس ٢٧١٦٣٠

BEIRUT - LEBANON - P.O BOX 240/25 - TELEFAX / 271630